الفصل الثالث

المفكر

obeikandl.com

obeikandl.com

توطئة

يصعب علينا في هذه الإضاءة أن نحيط بالجوانب الفكرية كلها في كتابات أنور الجندي. ترك الرجل إنتاجًا ضخمًا في هذا المجال يضم عشرات الكتب، وقد رأيت أن أركز على أبرز ما اهتم به وعالجه في استفاضة وإطناب، وأعطاه كثيرًا من القراءة والدرس.

كان الجانب التاريخي مهمًّا لكشف الملامح التي عاش بها المسلمون قديمًا وحديثًا وهم يصنعون بطولاتهم وأمجادهم لخدمة البشرية عامة وإعزاز أنفسهم والمستضعفين في الأرض، ويتعلق بهذا الجانب التعريف بأبرز الشخصيات التي صنعت تاريخ الإسلام وأثرت فيه، بالإضافة إلى تلك الشخصيات التي انحرفت عن المسيرة الصحيحة للفكرة الإسلامية، وانزلقت إلى فكر ملوث أو انحياز إلى الأعداء في تصوراتهم وغاياتهم الشريرة.

لقد أبرز الجندي الجانب الجهادي المقاوم للغزاة، والجانب الحضاري الذي قدم للإنسانية أسس الحضارة الحديثة في مختلف العلوم والفنون والقيم، وسجل للأمة تاريخها المضيء، وعثراتها التي تخلفت بها عن مواصلة الطريق.

كما كان الصراع مع العلمانية جانبًا خطيرًا، في معركة الاحتفاظ بالهويّة الإسلامية والذاتية، في مواجهة أخطر ألوان الغزو الفكري والثقافي التي يتبناها نفر من بني جلدتنا، في ظل توجيه من الغرب المخاصم للإسلام، وكان العنوان الأبرز في هذا الغزو هو فصل الدين عن الدولة، وإبعاد الإسلام عن المجتمع؛ ليكون المجتمع المسلم غريبًا عن دينه وهويته وخصوصيته.

للأسف؛ فإن النخب الموالية للعلمانية مازالت تبذل جهدها ونشاطها في هذا الاتجاه، وتبدد أدبياتها في الدعوة إلى العلمانية دون أن تبذل عُشر هذا الجهد في بناء المجتمع وحل مشكلاته وإصلاح التعليم ومعالجة متاعب الصناعة والزراعة والاقتصاد والعمال والفلاحين والعشوائيات والطرق والمواصلات، فضلًا عن الدفاع عن الحريات والعدل وكرامة الإنسان المسلم المظلوم.

ويرتبط بمواجهة العلمانية وخطرها الأكبر تحرير الواقع الثقافي الذي سيطر عليه العلمانيون من مختلف المذاهب والاتجاهات: يساريون وليبراليون، ويمينيون وباحثون عن المنفعة، وانتهازيون يتحركون مع اتجاه الريح.

وفي ظل هذا المناخ صنع التغريبيون أشخاصًا ورموزًا أضفوا عليهم طابع القداسة والصنمية بحيث لا يقترب منها أحد، ولا يناقش أفكارها باحثون، بل ينبغي من وجهة نظر تغريبية أن تؤخذ آراؤهم وأفكارهم مأخذ الوحي المقدس الذي لا يعترضه كاتب، ولا يخالفه أديب.

كان طه حسين أبرز النماذج التي تجرأ عليها أنور الجندي بالمساءلة والوثائق في عديد من كتبه وبحوثه، وهو ما أثار عليه الحياة الثقافية التي يتحكم فيها العلمانيون، ولكن الصورة المقدسة لطه حسين تغيّرت، وأعادته إنسانًا يخطئ ويصيب، ويبدع ويهبط.

ثم كان تصحيح المفاهيم الإسلامية والاصطلاحية التي شوهها التغريب والقصور الفكري ضرورة من ضرورات تحرير الواقع الثقافي؛ لأن المفاهيم المغلوطة تقود إلى نتائج مغلوطة، تهوي بالمجتمع إلى دركات الانحطاط الحضاري، والتخلف عن أمم الأرض.

طرح أنور الجندي كثيرًا من المفاهيم التي ينبغي أن تصحح، وأن يعلم الناس مضمونها الحقيقي الأصيل فيسيرون على هدى، ويتحركون على نور.

إن الدعوة إلى نبذ الماضي والتاريخ والتراث والقيم الإسلامية بحجة نبذ القديم، ومهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر بدعوى التجديد، ثم تحويل مفهوم البطولة إلى عبادة الأبطال بدلًا من المفهوم الإسلامي الذي يجعل البطولة قيمة قبل أن تكون شخصًا، ويحصرها في القدوة الطيبة والعمل الصالح لحساب الإسلام والمسلمين والبشرية عامة، وإن الترويج لمسألة الصراع بين العلم والدين، ونشر الثقافة والعلوم بدلًا عن التربية والتهذيب الخلقي، وعزل الفكر والأدب عن الدين؛ من المفاهيم الخاطئة التي يصوبها الإسلام لصالح المسلمين والإنسانية عامة.

ولعل رصد أنور الجندي للفكر الوافد ومخططاته يبين طبيعة الغزو الثقافي التغريبي ونشر القيم المعادية للإسلام من خلال جهود المستشرقين والخطط الصهيونية التلمودية عبر المؤسسات القائمة والتنظيمات السرية، وتجنيد المنتديات الماسونية بألوانها المتعددة، وعشرات الأنشطة ومئات الصحف وآلاف المرتزقة في الإذاعات، والقنوات.

إن غاية الفكر الوافد والمخططات الصهيونية تدمير الإنسان العربي المسلم معنويًا، وتزييف التاريخ، وفرض الفكر المادي البشري، وكانت الإرساليات التبشيرية ومؤسسات الاستشراق رأس الحربة في الترويج للمفاهيم والفلسفات المنحرفة مثل الحضارة الواحدة والوجودية والقومية بمفهومها الغربي... وغير ذلك.

لقد أثرى أنور الجندي الفكر الإسلامي بإسهاماته الضخمة، وهو ما نرى بعض ملامحه في الصفحات التالية.

***

أولًا: التأريخ لجهاد المسلمين

يلاحظ القارئ لإنتاج أنور الجندي المكتوب اهتمامه الكبير بفكرة التأريخ لواقع المسلمين وماضيهم، وما يترتب على ذلك من رؤية للمستقبل الإسلامي.

أغلب مؤلفات الرجل تدور في دائرة التاريخ، وخاصة في العصر الحديث. وهو تأريخ متنوع يشمل التاريخ السياسي والحضاري للأمة، ويتنوع في التراجم للأعلام وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، ثم رواية الأحداث المهمة التي مرّ بها المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل.

لقد كان العالم الاسلامي وحدة لا تتجزأ قبل الغزو الأوروبي العسكري، وكانت تجمع أبناءه وحدة الفكر والشعور، وأفاد الغزاة من حالة الضعف التي أصابت المسلمين فاتجهوا لاحتلالهم والهيمنة على بلادهم، ولكنهم استيقظوا في مواجهة الخطر الذي دق أبوابهم واقتحم بيوتهم وسلب ممتلكاتهم وثرواتهم، وفرض عليهم ثقافته وأفكاره سعيًا لمحو الإسلام من نفوسهم وشطبه من واقعهم.

هذه اليقظة التي انطلقت من عقيدة الأمة لم تجد من يدرسها ويعبر عنها بالمفهوم الإسلامي في دراسة شاملة تربط بين تحديات الغزاة الأجانب وبين رد الفعل في العالم الإسلامي. ربما كتب بعض الباحثين دراسات قصيرة يستعرضون فيها أحوال العالم الإسلامي الجغرافية والتاريخية، وتحمل في الغالب وجهة نظر غربية أو استشراقية تعتمد على مصادر أوروبية. ويقع كثير منهم بحسن نية في أخطاء علمية تسوغ فرقة المسلمين وتزرع بينهم الشك والعنصرية والطائفية والكراهية[1].

(1) انظر: أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٦ وما بعدها

تصحيح المفاهيم

لقد حمل المحتلون الغربيون حقد الحروب الصليبية في أعماقهم ولم يتخلوا عنه، فخاصموا الدولة العثمانية التي امتد نفوذها إلى قلب أوروبة وسيطرت عليها خمسة قرون، ومن غير المعقول أن ينصفوا الإسلام والعرب والدولة العثمانية أو يحكموا على التاريخ الإسلامي مجردين من الهوى أو متحررين من الأحقاد والمشاعر العدوانية التي يصعب فصلها عن شخصية المؤرخ أو الباحث الغربي.

حقًّا، هناك آراء غربية منصفة، ولكنها قليلة ونحن نرحب بها، وفي الوقت نفسه نسعى لتصحيح المفاهيم الخاطئة المغرضة التي يدفع بها الغزاة الغربيون ليبقى وجودهم مستديمًا في تصوراتنا، ويحقق لهم السيادة والنفوذ.

ولاشك أن العالم الإسلامي يمثل ثقلًا كبيرًا في ميزان التاريخ والسياسة الدولية والوجود البشري، ويقف مع ضعفه ومتاعبه بين الكتلتين الغربية والشرقية مؤثرًا في الأحداث بطريقة ما يعمل لها العالم حسابًا.

ولا ريب أن هذا الثقل الكبير قاوم بصلابة وشجاعة تحدي الحضارة الغربية الاحتلالي، وصمد صمودًا عظيمًا - مع ما تعرض له من هزائم ومحن وآلام - في وجه الجيوش الغازية، وقاوم مقاومة نبيلة في سبيل التحرر من النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي، ولم يسمح للغزاة المحتلين أن يهنئوا بالبقاء الطويل على أراضيه من خلال الجهاد المستمر الذي لم يتوقف.

الوحدة والمقاومة

لقد لعب الغزاة- وما زالوا - على الأوتار القومية بالمفهوم الأوروبي والطائفية والعرقية؛ لتمزيق الأمة من ناحية، والقضاء على المقاومة من ناحية أخرى، ولكن وحدة الشعور التي تربط أبناء الأمة على اختلاف جذورهم وتوجهاتهم مازالت قوية

وقائمة، وتواجه الضربات التآمرية بكل قوة وصبر؛ لأنها تؤمن أن قوتها في التنوع والتعدد، ومصيرها مرتبط بوجودها المشترك مهما بدا لبعض الطوائف أو الأعراق أو المذاهب أنه من الممكن أن يعيش سعيدًا لو تخلى عن محيطه الإسلامي.

خدعة الغزاة

ومن هنا فإن التأريخ للعالم الإسلامي ليس مجرد سرد مجموعة أحداث وحقائق تجاهلها الآخرون أو زيفوها، ولكنه تصحيح لمفاهيم مغلوطة بقصد إنهاض الأمة، وتجاوز العقبات التي تعترضها، وهي الغاية التي يطمح إليها أنور الجندي في عرضه لتاريخ العالم الإسلامي الحديث الذي تعرض ولم يزل لخطط إجرامية يتم تطبيقها من جانب الغرب الطامع في ثروات المسلمين وأسواقهم وبلادهم، والعامل على غسل أدمغتهم وتفريغها من الإسلام وقيمه ومفاهيمه وتصوراته.

لقد خدع الغزاة الغربيون الأمة العربية حين وعدوها إبَّان الحرب العالمية الأولى بإقامة دولة عربية عقب تفكيك دولة الخلافة بعد الإيقاع بين العرب والعثمانيين، وكانت النتيجة تفريق الأمة العربية إلى دول متعددة ذات نظام خاص وحدود خاصة.

ومع ذلك كانت عوامل الوحدة التي نحّاها المحتلون الغزاة قائمة ممثلة في الجذور العميقة للفكر الإسلامي والثقافة العربية واللغة العربية، وهو ما جعل العرب يتحدّون واقع الفرقة بعقد المؤتمرات على المستويين العربي والإسلامي لالتئام الوحدة الفكرية واستمرار الدعوة إلى الأخوة الإسلامية الشاملة.

المأساة الكبرى

واستطاع العرب بعد الحرب العالمية الثانية أن يقيموا حكومات وطنية في البلاد شبه المستقلة، ويواصلوا الجهاد في المغرب العربي الكبير للحصول على الاستقلال. بيد أن المأساة الكبرى التي ألمت بالعرب والمسلمين؛ تمثلت في إقامة دولة للكيان

الصهيوني على أشلاء فلسطين وشعبها، وممتلكاتها، وهو كيان إرهابي دموي عنصري توسعي؛ يدعمه الغرب الصليبي بالمال والسلاح والخبز والخبرة والعلم.

ترتب على قيام الكيان الصهيوني الاحتلالي آثار عميقة طالت كل شيء في حياة الأمة العربية وتجلت بصورة واضحة في الشعر والنثر والفنون والبحث العلمي والمجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية.

وقد وجد النفوذ الاحتلالي الغربي في المجال الثقافي سلاحًا خطيرًا يقاوم به الانتماء العربي إلى الفكر الإسلامي والقرآن والإسلام واللغة العربية والقيم الأساسية التي قام عليها بناء الأمة الإسلامية. وقام الغزاة بتعميق نفوذهم من خلال التبشير والتغريب والشعوبية والغزو الثقافي وإثارة الشبهات بصورة متصلة حول الفكر الإسلامي العربي، وإشعال الخلافات بين المذاهب والملل وتعميق الفوارق المتصلة بالقوميات والأجناس والطوائف، وفرض تيارات فكرية غربية بديلًا عن الإسلام مثل الوجودية والماركسية والليبرالية والحداثة وما بعد الحداثة؛ لتظل الثقابة العربية في حالة اضطراب وتعيش في متاهات وصراعات لا تنتهي![1].

الإنجليز والقرآن

وقد أثر عن آية الله كاشاني الزعيم الروحي في إيران قوله بعد أحداث تأميم البترول في عهد مصدق:

"الإنجليز أضاعوا قرآننا"

وكان السياسي البريطاني جلادستون يردد: "لا طريق للإنجليز بين الأمم الإسلامية مادام فيها القرآن..."[2].

(1) انظر: السابق، ص ٢٢ - ٣٠

(2) نفسه، ص ٨١

لقد استعرض أنور الجندي الإسلام وعالمه بدءًا من العرب وتركيا وإيران حتى أفغانستان وباكستان والهند والملايو وإندونيسيا وإفريقية، وتناول عبر قرنين من الزمان هما فترة العصر الحديث وما جرى فيه من أحداث: الوحدة الإسلامية والجامعة الخلافة الإسلامية، وبالمثل تناول الأمة العربية وعالم الإسلام من خلال أحوال مصر والدعوات الإقليمية وحركات المقاومة العربية وثورة الجزائر وجذور الوحدة العربية.

وكان لحركات الإصلاح في العالم الإسلامي مساحة كبيرة في كتاب أنور الجندي "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي" بالإضافة إلى كتب أخرى عديدة وخاصة معلمة الإسلام"، فقد بسط الكلام حول دعوة التوحيد، والدعوة السنوسية والدعوة المهدية، وحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والحركة السلفية وجمعية العلماء والحركة الإسلامية في الهند وباكستان، وحركة الإصلاح في إندونيسيا والحركات الصوفية.

واستعرض أنور الجندي أحوال الثقافة في العالم الإسلامي من خلال التعليم والثقافة واللغة العربية في أرجاء العالم الإسلامي.

وإلى جانب ما سبق فقد عالج التحديات التي واجهت العالم الإسلامي وفي مقدمتها الاستعمار والتبشير والصهيونية، والحركات الهدامة مثل البهائية والقاديانية والماسونية.

دعوات خطيرة

وهذه الحركات وغيرها أفضت إلى محاولات عديدة لتغيير مفاهيم الإسلام والقضاء على قيم الجهاد ضد الغزاة، والادعاء أن الإسلام دين روحاني فقط لا علاقة له بشئون الحياة والمجتمع. كما تجلى ذلك في دعوة الكماليين وكتابات علي عبد الرازق، والدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية جملة واحدة بخيرها وشرها

كما وضح في كتاب طه حسين في مصر وأحمد أغايف في تركيا. بالإضافة إلى دعوات تمزيق الوحدة الفكرية للمسلمين وبث الفرقة فيما بينهم ببعث الإقليمية والطائفية والفصل بين العروبة والإسلام، ومحاولة تصنيف الإسلام على أساس جغرافي مثل الإسلام الهندي والإسلام التركي.

ومازالت الدعوات الهدامة تعمل حتى اليوم سرًّا وجهرًا، وتعد إفريقية وآسيا مجالًا خصبًا وحيويًّا لهذه الدعوات.

التأريخ بالوثائق

ويخطو أنور الجندي خطوة مهمة إلى الأمام لم يسبقه إليها أحد في ظني، وهي تسجيل تاريخ الإسلام الحديث من خلال الوثائق التي تتناول الأحداث التي مر بها المسلمون في القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر والعشرين الميلاديين)، وهي الفترة التي شهدت ذروة الإعصار الاستعماري الذي جدد عصر الحروب الصليبية بصورة أشد قسوة ووحشية وذكاء ضد المسلمين. إنه يترك الوثائق تتكلم وتوضح طبيعة الحدث أو الواقعة أو موقف الشخصية التاريخية. وفي كتابه "معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن الرابع عشر الهجري"[1]، يسجل أنور الجندي وثائقه التي تتناول عالمية الإسلام والأزهر والعالم الإسلامي والتغريب واليونسكو والفكر والثقافة والغرب والإسلام والمؤامرة عليه والمؤامرة الصهيونية والاستعمار الغربي والإسلام في الغرب وعطاء الإسلام والوحدة الإسلامية والنفوذ الغربي في مصر والدولة العثمانية وإيران وقضايا متفرقة.

وتهدف الوثائق إلى وضع الصورة الحقيقية لوقائع التاريخ المتعلق بالمسلمين أمام الباحث المسلم؛ ليراجع الصورة المشوشة التي رسمها الغربيون أو تلامذتهم غير المنصفين من أبناء جلدتنا.

(1) توزيع دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت

التاريخ والحضارة

ثمة قضية تشغل كثيرًا من الباحثين؛ وهي قضية الحضارة وعلاقتها بالتاريخ الحديث؛ حيث رأى كثير منهم أن الحضارة الغربية هي النموذج الذي ينبغي أن يحتذى، وفي الوقت ذاته فلا يوجد مكان للحضارة الإسلامية على أرضية البحث والدرس، وإن كان الصراع ما زال قائمًا بين المجتمعات الإسلامية وبين حضارة الغرب التي تستهدف انتزاع المسلمين من منهجهم الأصيل ونهجهم القرآني وأسلوب العيش الإسلامي.

لقد استطاعت الحضارة الغربية أن تكتسح العالم كله وأن تفرض وجودها على المجتمعات الإسلامية، ولكنها لم تستطع أن تحتوي المسلمين أو تقضي على الحضارة الإسلامية.

لقد قدم الإسلام للعالم مفهوم الحضارة بوصفها تحريرًا للإنسان من العبودية والوثنية، كما قدم للبشرية المنهج العلمي التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة. وللأسف فقد انحرفت الحضارة الغربية عن منهج الحق والعدل والرحمة والإخاء الإنساني، مما يدفع بها إلى مرحلة الأفول.

وفي كتابه الإسلام والحضارة؛ يعالج أنور الجندي قضية الحضارة من خلال التاريخ، فيعالج حضارة ما قبل الإسلام، ومنطلق الحضارة الإسلامية، ومنطق الحضارة الغربية وأزمتها ودخولها مرحلة المحاق، ثم يتناول موقف الغرب من حضارة الإسلام، ويقارن بين حضارة التوحيد وحضارة الوثنية.

مفترق الطرق

ويؤكد الجندي أن المسلمين يقفون على مفترق الطرق يلتمسون العلم والتكنولوجيا ومعطيات الحضارة، ويستشرفون هذه المرحلة الجديدة من حياتهم. وهم في حاجة إلى الإصرار على أسبقية الإيمان بالله والأخلاق على كل عطاء

حضاري مادي، وأن نقل مستحدثات العلم والتقدم يجب أن ينصهر داخل فكر المسلمين وقيمهم من أجل صناعة الحضارة القادمة[1].

يقول هاميلتون جب:

"إن الإسلام لا يزال عامل التوازن بين النقيضين في العالم الغربي، فهو يقف في وجه فوضى الوطنية الأوروبية كما يقف حائلًا دون زحف الشيوعية الروسية، ذلك لأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الاقتصادي الذي يعد من خصائص الحياة في أوروبة وروسية على السواء".

"إن الإسلام مطالب بخدمة يسديها للإنسان فهو إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوروبة إليه، وله ماض بعيد في تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس في مجتمع آخر له ما ليس للإسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات".

ويشير "جب" إلى أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها، وتستطيع وساطة الإسلام أن تحل التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب، وحل المشكلة التي تواجه أوروبة في علاقتها مع الشرق[2].

وتبقى بعدئذ فكرة تقديم التاريخ من خلال الحضارة ومعطياتها خطوة نحو محو الصورة الذهنية التي ارتبطت في وجدان المسلمين بعرض تاريخهم عبر الحكام والقادة الطغاة أو أولئك الذين لم يكن الجانب الإنساني لديهم ساطعًا، فبدا التأريخ تاريخ أشخاص وليس تاريخ أمة، وثمرة علم وإبداع حصدتها الشعوب الإسلامية عبر سنوات طوال.

(1) انظر: أنور الجندي، الإسلام والحضارة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص١٥

(2) انظر: السابق، ص ٢٩١ وما بعدها

أيام الله

هناك وجه آخر لتقديم التاريخ الإسلامي بعرض أهم وقائعه وحوادثه البارزة التي أثرت في مسيرة الإسلام والمسلمين انطلاقًا من قوله تعالى:" وذكرهم بأيام الله.." (إبراهيم:٥). وللمفسرين رأيان في تفسير "أيام الله" فهناك - وفقًا لتفسير الطبري - رأي يقول بأن أيام الله هي النعم التي أنعم بها ربنا سبحانه وتعالى على بني إسرائيل حيث أنجاهم من آل فرعون، وفلق لهم البحر، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى.

والرأي الآخر: يقول إن المراد (بأيام الله): وقائعه وأحداثه. قال ابن السكيت: العرب تقول (الأيام)، في معنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعها. ومن ذلك أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم جبلة، ويوم البيداء. وغيرها من أيام العرب المشهورة. قال تعالى: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" (آل عمران:١٤٠).

ويشهد لهذا التفسير الثاني ما روي عن ابن زيد في قول الله تعالى: "وذكرهم بأيام الله"، قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم خوَّفهم بها، وحذَّرهم إياها، وذكَّرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم. وروي نحو ذلك عن الربيع ومقاتل وغيرهما.

وفي هذا السياق- يرى الأستاذ الريسوني - أن معرفة (أيام الله)، والاعتبار بها، هو جزء من الدين، وجزء من رسالة الأنبياء. وهو صريح قول الله تبارك وتعالى. وليس هذا خاصًّا بموسى عليه السلام، كما قد يُفهم من الآية الكريمة، بل هي سنة الله في عامة أنبيائه ورسله، ومنهم محمد - ﷺ - فمن المعلوم أن حيزًا كبيرًا من القرآن الكريم إنما هو تذكير (بأيام الله)، ودعوة للاعتبار بها، "فاعتبروا يا أولي الأبصار" (الحشر:٢).

رشد للإنسانية

ومن هذا المنطلق يأتي التذكير بأيام الله عبر التأريخ الذي يقدمه أنور الجندي في كتاب يحمل عنوان الآية الكريمة: "وذكرهم بأيام الله". فيقدم لنا معطيات سيرة الرسول- ﷺ- في مواجهة تحديات العصر، ومولده وأمانته- ﷺ بوصفهما علامة رشد للإنسانية، والإسراء والمعراج والهجرة النبوية وانتقال الإسلام من الدعوة إلى الدولة، وفتح مكة وخطبة الوداع، والبطولة الإسلامية في العمل والجهاد، ومن نماذجها: خالد بن الوليد، والقعقاع بن عمرو التميمي، ثم نعيش مع عمر بن الخطاب في بيت المقدس وهو يشهد لحظة الحدث العظيم بفتح القدس وتسلم مفاتيحها. ونتحرك مع الجندي في فتح مصر وانتصار حطين وبطولة صلاح الدين الأيوبي وتصفية الغزوة الصليبية وغير ذلك من أيام تشرّف العرب والمسلمين.

صلاح الدين الأيوبي

ولعل أفضل تأريخ لصلاح الدين الأيوبي ما كتبه هاميلتون جب حول شخصيته وسلوكه وقيادته وتعامله مع أعدائه. ويورد أنور الجندي شهادته حول البطل المسلم على عدة صفحات، وكأنه يدّخرها لأيامنا هذه التي تقوم فيها بعض الجهات بشيطنة الرجل، ووصفه بالإرهاب لدرجة حذفه مع عقبة بن نافع من مناهج التعليم في بعض الدول العربية التعيسة.

ويشير "جب" إلى أن ما حققه صلاح الدين يعود إلى إنكاره للذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتماء اسميًّا، على حد سواء، ولم يكن صلاح الدين نفسه ساذجًا، ولكنه مع هذا، كان غاية في البساطة فذًّا في النزاهة. ولقد حيّر أعداءه من الأدنين والأبعدين؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم، وأن يقوم بالألاعيب والمناورات

السياسية مثلما يفعلون، وكان هو نفسه طيب السريرة؛ ولذا لم يكن أبدًا يتوقع أبدًا أن يفهم مكر الآخرين، وقلما فهمه، وذلك ضعف استغله فيه أحيانًا أقرباؤه، إلا إنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصه لمثله العليا إخلاصًا لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه[1].

وبالنسبة لرجل مثل الإمام الشهيد حسن البنا؛ فقد لوحظ أنه لم يتكلم عنه من وجهة نظره، وقد كان قريبًا من الجماعة ومتابعًا لمسيرتها ومسيرته، ولكنه آثر أن يلجأ إلى شهادة رجل أجنبي غير مسلم، وترجم الموضوع الذي كتبه عنه، على قلة إنتاجه في الترجمة. ولعله أراد أن يأتي بشهادة رجل محايد عن الرجل الذي احتشد خصوم الإسلام وأتباع الاحتلال على تشويه صورته، ومهاجمته بالباطل..

يقول روبير جاكسون في موضوعه "حسن البنا.. الرجل القرآني" عن ظروف لقائه بحسن البنا:

في فبراير سنة ١٩٤٦، كنت في زيارة للقاهرة.. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذي يتبعه نصف مليون شخص، وكتبت في النيويورك كرونيكل بالنص:

زرت هذا الأسبوع رجلًا قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر- وقد يختفي اسمه إذا كانت الحوادث أكبر منه، ذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الإخوان".

ويضيف جاكسون:

"هذا ما كتبته منذ خمس سنوات، وقد صدقتني الأحداث فيما ذهبت إليه، فقد ذهب الرجل مبكرًا.. وكان أمل الشرق في صراعه مع المستعمر. وأنا أفهم جيدًا أن الشرق يطمح إلى مصلح يضم صفوفه، ويرد له كيانه، غير أنه في اليوم الذي بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف، وبطريقة شاذة. (يقصد اغتياله في شارع رمسيس بالقاهرة في ١٢ فبراير ١٩٤٩).

(1) انظر: أنور الجندي، وذكرهم بأيام الله، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص١٥٩

وبعد أن يصف جاكسون موقفه من الرجل ودعوته وما لفت نظره فيه من سمت بسيط، ومظهر عادي، وثقة لا حد لها بالنفس، وإيمان عجيب بفكرته، يقول:

"كنت أتوقع أن يجيء اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله.

وسافرت من مصر بعد أن حصلت على تقارير وافية ضافية عن الرجل وتاريخه وأهدافه وحياته. وقد قرأتها جميعًا وأخذت أقارن بينه وبين جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والسيد السنوسي، ومحمد بن عبد الوهاب، فوصل بي البحث إلى أن الرجل قد أفاد من تجارب هؤلاء جميعًا، وأخذ خير ما عندهم، وأمكنه أن يتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء، ومن أمثلة ذلك أنه جمع بين وسيلتين متعارضتين، جرى على إحداهما الأفغاني، وارتضى الأخرى محمد عبده.

كان الأفغاني يرى الإصلاح عن طريق الحكم، ويراه محمد عبده عن طريق التربية. وقد استطاع حسن البنا أن يدمج الوسيلتين معًا، وأن يأخذ بهما جميعًا، كما أنه وصل إلى ما لم يصلا إليه، وهو جمع صفوة المثقفين من الطبقات والثقافات المختلفة إلى مذهب موحد، وهدف محدد"[1].

ثم يتتبع جاكسون حياة البنا في وجوه مختلفة، حتى يصل إلى نهاية بحثه بتساؤل فيه كثير من الذكاء يقول فيه:

"إن الأمر الذي أسال عنه فلا أجد له جوابًا: هل هناك علاقة ما بين الإسلام كما كان يفهمه حسن البنا ويدعو إليه وبين نهايته؟ إن كثيرين يدعون إلى الإسلام ويحملون اسمه، فهل هناك خلاف جوهري بين ما كان يدعو إليه حسن البنا وما يدعو إليه هؤلاء؟

(1) روبير جاكسون، حسن البنا الرجل القرآني، ترجمة: أنور الجندي، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م ن ص ٥ - ٧

لأني لا أعرف الإجابة الصحيحة أدع ذلك للتاريخ؟"[1].

استشراف المستقبل

لقد أخلص أنور الجندي في تقديمه للتاريخ الإسلامي كي ينقيه من المفاهيم المغلوطة والوقائع المكذوبة، والتفسيرات التي تقوم على الهوى أو تعتمد وجهة نظر غير موضوعية، مما يساعد الأجيال الجديدة على التعرف على تاريخها الحقيقي، بعيدًا عن التزييف والتضليل والتدليس الذي احترفته بعض الجهات والأبحاث، ونحن في حاجة إلى إعادة قراءة التاريخ من خلال كتابات أنور الجندي لنواجه الحملات الضخمة التي يضخّها الإعلام المرئي والمسموع والمقروء الذي يصب في أعين المتلقين وآذانهم وعقولهم كثيرًا من الأكاذيب والحقائق المغلوطة.

إن معرفة حقائق التاريخ وحوادثه بطريقة صحيحة يهيئ لاستشراف المستقبل بصورة أفضل وأوضح، وهذا ما هدف إليه أنور الجندي من اهتمامه بالتأريخ الإسلامي.

***

(1) السابق، ص ٣٧

obeikandl.com

ثانيًا: مواجهة العلمانية

الإنجليز السمر:

كان إدراك أنور الجندي للنفوذ الأجنبي وتأثيره في البلدان العربية والإسلامية عميقًا وواعيًا، فقد جاء الغرب بجيوشه الجرارة واحتل معظم العالم العربي والإسلامي، وبقي سنوات طويلة تفاوتت من بلد إلى آخر، ثم رحل وترك وراءه فكرًا خطيرًا ونخبة موالية له، لدرجة أن هناك عبارة تنسب للشهيد- بإذنه تعالى - سيد قطب، صرح بها بعد جلاء الإنجليز عن مصر، تقول:

"خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر!".

الإنجليز السمر إشارة إلى النخبة الموالية للغزاة الذين انسحبوا بجيوشهم من البلاد، ومنحوها استقلالًا شكليًّا، ولكنهم بقوا في عمق الوطن من خلال هذه النخبة التي ترفض منهج الإسلام وتشريعاته ومعطياته فضلًا عن الاستقلال والحرية، كما أنها لا تخافت بالولاء للتصور الغربي وتجلياته، وخاصة في الجوانب السلبية والهامشية.

وخطورة أن تتشبع النخبة بمفاهيم الغرب الاستعماري تأتي من كونها المخ الذي يقود المجتمع في المجالات المختلفة: السياسية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإعلامية والعسكرية والفنية والقانونية والتجارية والتربوية والتعليمية، وغيرها.

فلسفة القوة الانتهازية

ولأن الغرب الاستعماري كان متشبعًا بروح العلمانية منهج حياة، وفلسفة قوة انتهازية تسمح له باستغلال الشعوب الضعيفة ونهبها وفرض ثقافته وقيمه المادية عليها دون أن يردعه وازع ديني أو ضمير إنساني، فقد فرض المفهوم العلماني في

حكمه للمستعمرات وتنشئة النخبة الحاكمة من أبناء البلاد على الإيمان بالعلمانية بوصفها طريقًا أوحد في حكم الشعوب الإسلامية؛ مع ما يرتبط بذلك من مصادمة هوية الأمة واحتقار دينها ونبذ تراثها المضيء، والانحياز للغزاة وسلوكهم الإجرامي المهين للشعوب والإنسانية، وعنصريتهم القبيحة الفجة واستعلائهم المشين.

تعريفات متعددة

ومن خلال تعريفات العلمانية المتعددة يتضح أنها تتفق على فصل الدين عن السياسة والحكم، وتتفاوت التعريفات بعدئذ فيما يتعلق بالتفاصيل.

فموسوعة ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، مثلًا تقول:

العَلمانية هي فصل الحكومة والسلطة السياسية عن السلطة الدينية أو الشخصيات الدينية. وتعني أيضًا عدم قيام الحكومة أو الدولة بإجبار أي أحد على اعتناق معتقد أو تبني دين أو تقليد معين لأسباب ذاتية غير موضوعية، كما تكفل الحق في عدم اعتناق دين معيّن وعدم تبني دين معيّن دينًا رسميًّا للدولة. وبمعنى عام فإن هذا المصطلح يشير إلى الرأي القائل بأن الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصًا السياسية منها يجب أن تكون غير خاضعة لتأثير المؤسسات الدينية[1].

الدنيوية

وهناك من يرى أن العلمانية هي المقابل اللغوي العربي لكلمة Secularism الإنجليزية وتترجم حرفيًّا بمصطلح "دنيوية"، وكان هذا المصطلح يستعمل في وصف العامة من غير رجال الدين قبل أن يتّخذ دلالة سياسية، وقد يظن بعض الناس أن المصطلح في اللغة العربية لمعنى الكلمة هو العلمانية وهي مشتقة من كلمة

(1) انظر: كارين آرمسترونج، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الكلمة، دمشق ٢٠٠٥، ص.١٠٢وما بعدها

العالم أو العلم؛ حيث يستخدمه بعض الكتاب لتجنب الارتباك، في حين يفضل البعض الآخر مصطلح الدنيوية على النقيض من "الدينية". ومصطلح العلمانية ررجمة غير دقيقة، وغير صائبة لكلمة Secularism في الإنجليزية، أو – Secula ite أو Lauque بالفرنسية، وهذه الكلمة حسب أصلها في اللاتينية لا علاقة لها بلفظ العلم ومشتقاته، على الإطلاق. فلفظة العلم في الإنجليزية والفرنسية، يعبر عنها بكلمة Science، وأما المذهب العلمي، فيطلق عليه كلمة Scientism، والنسبة إلى العلم في الإنجليزية هي Scientific أو Scientifique في الفرنسية.

والحق أن اشتقاق العلمانية من العلم خطأ محض، بل هو تمويه خطير، وزيف كبير، ذلك أن منهج العلم في حقيقته لا يقر منهجًا ناقصًا، ولا يرى أن العلم التجريبي القائم على المحسوس والتجربة هو وحده العلم، ولا يرى أن عالم الغيب مما يستبعد تمامًا أو ينظر إليه على أنه غير قائم وغاية ما يقول العلم التجريبي في عالم الغيب (الميتافيزيقا) أنها مما لا تستطيع وسائله وأدواته أن تقول فيها الكلمة الفاصلة[1].

الجذور البعيدة

وتعود جذور العلمانية إلى الفلسفة اليونانية القديمة لفلاسفة يونانيين أمثال أبيقور، غير أنها خرجت بمفهومها الحديث في عصر التنوير الأوروبي على يد عدد من المفكرين أمثال توماس جيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة، وفولتير، والمفكر الإنكليزي جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) أحد الداعين إلى نظام يفصل الدين عن الدولة، ويطلق الحريات العامة. ويطبق المفهوم ذاته على الكون والأجرام السماوية عندما يُفسّر النظام الكوني بصورة دنيوية بحتة بعيدًا عن الدين في محاولة لإيجاد تفسير للكون ومكوناته.

(1) أنور الجندي، سقوط العلمانية، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٢

ولا تعد العلمانيّة - وفقًا لهذا المفهوم - شيئا جامدًا بل هي قابلة للتحديث والتكييف حسب ظروف الدول التي تتبناها، وتختلف حدة تطبيقها ودعمها من قبل الأحزاب أو الجمعيات الداعمة لها بين مختلف مناطق العالم. وتزعم هذه الرؤية أن العلمانية ذاتها ليست ضد الدين بل تقف على الحياد منه. ففي الولايات المتحدة مثلًا وُجد أن العلمانية خدمت الدين من تدخل الدولة والحكومة وليس العكس. وقد يعدها بعضهم جزءًا من (التيار الإلحادي)[1].

نزعة سوفسطائية

وقد اعترف مراد وهبة- لأول مرة وهو طائفي متعصب، ومن أكبر دعاة العلمانية في بلاد المسلمين - أن العلمانية في أصولها وجذورها "نزعة سوفسطائية"، وفقًا لعبارة الفيلسوف السوفسطائي "بروتا غوراس" (٤٨٠- ٤١٠ ق.م) التي تعد بداية العلمانية: "الإنسان مقياس الأشياء جميعًا"!

ويضيف مراد وهبة: "أن عصر التنوير - الذي عرفته أوروبا في القرن الثامن عشر - "والذي يحرر العقل من كل سلطة ما عدا سلطة العقل" هو "تنوير مؤسس على العلمانية" - أي على النزعة السوفسطائية - وأن هذا التنوير قد أفرز - في القرن العشرين - "حركة لاهوتية تسمى "اللاهوت العلماني" وأن فلاسفة هذا اللاهوت العلماني: "توماس التيزر" و"وليم هاملتون" اللذين نشرا عام ١٩٦٦م كتابًا عنوانه: "اللاهوت الراديكالي وموت الله".. وأنهما قد حكما "بموت الله" تبعًا لموقف الفيلسوف الألماني "نيتشه" (١٨٤٤- ١٩٠٠م) الذي أعلن "أن الله قد مات" وذلك في كتابه "هكذا تكلم زرادشت".

فالله - في هذا اللاهوت العلماني - المؤسس على التنوير السوفسطائي -

(1) راجع: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط٢، الرياض، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، ص ٣٦٥ وما بعدها

النابع من الحكمة السوفسطائية والعلمانية السوفسطائية – قد مات، ومعه مات المطلق، ولم يبق إلا النسبي كما قرر السوفسطائيون[1].

لاهوت نسبي؟!

ويعلق محمد عمارة على ذلك بأن الرجل لم يفسر لنا "لغز" وجود "لاهوت علماني"؟! إذ كيف يكون هناك "لاهوت" نسبي غير مطلق؟ وكيف يموت الله في هذا اللاهوت؟!.

ويضيف عمارة أن "الحكمة" في الثقافة الإسلامية – التي يرفضها وهبة – "هي الصواب في غير نبوة"، أي إن لدنيا صوابًا جاء به الوحي، وصوابًا جاء به العقل.. والله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل الكتاب والحكمة. وفي القرآن يوصف الوحي بأنه "فرقان" ويوصف العقل بأنه "فرقان"، وفي هذه الثقافة الإسلامية يصبح الشرع مع العقل "نورًا على نور"[2].

حركة اجتماعية

وتقدم دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية بكونها: "حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشؤون الدنيوية بدلًا من الاهتمام بالشئون الأخروية. وتعد جزءًا من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة الداعية لإعلاء شأن الإنسان والأمور المرتبطة به بدلًا من إفراط الاهتمام بالعزوف عن شئون الحياة والتأمل في الله واليوم الآخر. وقد كانت الإنجازات الثقافية البشرية المختلفة في عصر النهضة أحد أبرز منطلقاتها، فبدلًا من تحقيق غايات الإنسان من سعادة ورفاه في الحياة الآخرة، سعت العلمانية في أحد جوانبها إلى تحقيق ذلك في الحياة الحالية".

(1) انظر: مجلة الثقافة الجديدة، وزارة الثقافة، القاهرة، عدد أغسطس ٢٠١٥

(2) محمد عمارة، العلمانية: مقال نزعة سوفسطائية، موقع عربي ٢١، ٢٨ أكتوبر ٢٠١٥

بيد أن أنور الجندي يؤكد أن العلمانية ليست قاصرة على فصل الدين عن الدولة، بل تهدف إلى إقصاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة والقوانين والتعليم والاقتصاد[1].

حياد الدولة

وإذا كان بعض دعاتها يرفع شعار حياد الدولة تجاه الدين، وأنها ليست عقيدة إيجابية أو فلسفية تعتمدها الدولة وتبشر بها، بل هي موقف سلبي، فهو من العبارات المقنّعة خطيرة المدلول؛ لأنها تسعى إلى شطب الدين وإلغائه كليًّا من الحياة والمجتمع والفكر[2].

وقد حاول العلمانيون - بقصد التخفيف من طبيعة العلمانية المعادية للدين - الإيحاء أنها ليست أيديولوجيا أو عقيدة بقدر ما هي طريقة للحكم، ترفض وضع الدين أو سواه مرجعًا رئيسيًّا للحياة السياسية والقانونية، وأنها تتجه إلى الاهتمام بالأمور الحياتية للبشر بدلًا من الأمور الأخروية، أي الأمور المادية الملموسة بدلًا من الأمور الغيبية.

وفي السياق ذاته تحدث بعضهم عما يسمى بالعلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، والأولى يتحرر فيها الفرد من قيود المطلق والغيبيّ وتبقى الصورة العقلانية المطلقة لسلوك الفرد، مرتكزًا على العلم والتجربة المادية. أما الأخرى فهي تركز على الدنيويات، وتترك الجانب الأخروي الغيبي للأفراد.

ويذهب بعضهم مثل حسن حنفي إلى مزاعم أبعد حين يروج لفكرة أن الإسلام دين علماني بمعنى غياب الكهنوت، أي بعبارة أخرى غياب المؤسسات الدينية الوسيطة. فلا وجود لكهنوت أو كنيسة تملك الهيمنة على الأتباع.

وحاول بعضهم أن يغير المصطلح من الدولة العلمانية إلى الدولة المدنية، أو دولة مدنية ذات مرجعية إسلامية! وهي محاولات فيها التفاف واضح على الحقيقة بهدف إقصاء الإسلام وإبعاده عن المجتمع وتشريعاته وقيمه.

(1) سقوط العلمانية، ص ٢٤

(2) السابق، ص ٢٥

ويوضح أنور الجندي أن العلمانية لها أكثر من مدلول، وأن الدلالة تتحول من زمن إلى آخر، وأن المترجمين العرب أخفوا دلالته الحقيقية حتى لا تصدم الحس العربي، وتبقى في نطاق العلم مما يحميها من الاتهام، وصدق جان ريفو حين قال: إن العلمانية كلمة لها رائحة البارود؛ لما تثير من استجابات متضاربة متناقضة[1].

ملخص أهداف

ويرى أنور الجندي أن المصادر التي تناولت العلمانية تجمع على أنها تستهدف الغايات الآتية:

أولاً: عزل الدين عزلًا تامًّا عن المجتمع، وإتاحة الفرصة لقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة، وتأسيس الاقتصاد على أساس الربا.

ثانيًا: إبعاد قطاع أصيل من الفكر الإنساني، وهو جانب الروح والوحي وعالم الغيب، وكل ما يتصل بالدين من أخلاق وعقائد وإيمان بالله، وعزله عزلًا تامًّا عن الفكر والحياة.

ثالثًا: إعلاء كلمة العقل والمادية والإلحاد، وإقامة منهج علماني يقيس الأمور بمقاييس الحس والعقل والتجربة وحدها، سواء ما يتصل بالإنسان أو المجتمع أو الحياة[2].

باروخ اسبينوزا

والعلمانية لم تنشأ مذهبًا فكريًّا بشكل مطرد إلا في القرن السابع عشر، ولعلّ الفيلسوف اليهودي الملحد باروخ إسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧)، كان أول من أشار إلى أن الدين يحوّل قوانين الدولة إلى مجرد قوانين تأديبية. وأشار أيضًا إلى أن الدولة كيان متطور وتحتاج دومًا للتطوير والتحديث على عكس الشريعة الثابتة الموحى بها؛ لذا يرفض اعتماد الشرائع الدينية مطلقًا، مؤكدًا أن قوانين العدل

(1) سقوط العلمانية، ص ٧

(2) سقوط العلمانية، ص ٢٠ وما بعدها

obeikandi.com

الطبيعية والإخاء والحرية هي وحدها مصدر التشريع.

لقد عاش سبينوزا في هولندا أكثر دول العالم حرية وانفتاحًا آنذاك، ومنذ استقلالها عن إسبانيا، طوّر الهولنديون قيمًا جديدة، وحوّلوا اليهود ومختلف الأقليات إلى مواطنين بحقوق كاملة، وأسهم جو الحريّة الذي ساد إلى بناء إمبراطورية تجارية مزدهرة ونشوء نظام تعليمي متطور، فنجاح الفكرة العلمانية في هولندا، وإن لم تكتسب هذا الاسم، هو ما دفع - حسب رأي عدد من الباحثين ومن بينهم كارن أرمسترونغ - إلى تطور الفكرة العلمانية وتبينها لتكون إحدى صفات العالم الحديث.

عامل حاسم

ويُعدّ تيقظ الحركة اليهودية في أوروبة، وانبعاث مفاهيمها من التلمود والتوراة المحرفة، وتشكل ذلك التحدي الخطير باسم الماسونية، وما اتصل بها من حركات تغيير كانت الثورة الفرنسية في مقدمتها عاملًا حاسمًا في بلورة العلمانية. وسيطر هذا العامل على الفكر الأوروبي في عصر التنوير معارضًا الفكر الغربي المسيحي، لإقامة أنظمة جديدة يتاح في ظلها خروج اليهود من الجيتو، والحصول على حق المواطنة، مقدمة للوثوب إلى الحياة الفكرية والاجتماعية، والسيطرة عليها.

وكانت العلمانية الطريق الذي يحطم الحواجز الضخمة التي تقف في وجه اندماجهم في المجتمعات الأوروبية. فقد سيطر اليهود على ميادين الفكر والثقافة والطب والعلم والصحافة، وتركوا لغيرهم السياسة[1].

ثم استطاعوا السيطرة على السياسة من خلال الصحافة والمال، ثم كانت الثورة الفرنسية الخطوة الأولى، تلاها خطوتان: إسقاط الدولة العثمانية، وإقامة النظام الشيوعي في موسكو[2].

(1) سقوط العلمانية، ص ١٦

(2) السابق، ص ١٦ - ١٧

نتاج يهودي

وتكشف هذه الخلفية أن العلمانية نتاج يهودي تلمودي أصيل كان له أبعد الأثر في الفكر الغربي، فقد سادته عوامل أربعة مهمة:

١ – نظام اقتصادي قائم على الربا. ٢ – قانون وضعي متنصل من شرائع الله.

٣ – تعليم لاديني متحرر من نفوذ الكنيسة.

٤ – ديمقراطية تحل الإيمان بالدولة محل الإيمان بالعقيدة[١].

حضارة العصر

وقد ساعد على نجاح فكرة العلمانية في أوروبة عجز السلطات الدينية الأوروبية مسايرة حضارة العصر، ولم يتردد بعض المفكرين في وصف الدين عندهم بأوصاف هابطة. فأوجست كونت وليفي بريل اعتبراه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية، وأنه ليس إلا خطوة من خطوات الإنسانية نحو المبدأ العلمي الحديث.

وفكرة كارل ماركس أن الدين أفيون الشعوب ما كانت لتنتشر لو أن رجال الكنيسة كانوا على مستوى الحضارة الحديثة ومشكلاتها المتعددة، ولكنهم وقفوا موقف المتفرج من الأفكار والتيارات الفلسفية التي نشأت في ذلك الحين[٢].

وكان يمكن للدين أن يصحح موقفه هناك، ولكن القوى التلمودية كانت أسبق وأجرأ، وقامت المنظمات الماسونية بإسقاط الحكومات المسيحية الخاضعة لنفوذ الكنيسة، وإنشاء حكومات متحررة من هذا النفوذ. وصار الفصل بين الدين والدولة أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة والحكم. وكان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوروبة وهي الجمعية الوطنية الفرنسية ١٧/ ٩/ ١٧٧١م اعتبار اليهود المقيمين في فرنسا متساوين، لهم حقوق المواطن وعليهم واجبات جميعًا[٣]..

(1) نفسه، ص ١٧

(2) السابق، ص ٢١

(3) نفسه، ص ٢٢

مؤيدو العلمانية

كان العسكر الانقلابيون والبعثيون، وغير المسلمين من العرب، والليبراليون في القرن العشرين وخاصة بعد منتصفه؛ من أوائل المؤيدين للمبادئ العلمانية في بلدان الشرق الأوسط، وقد سعوا إلى إقصاء الإسلام عن الحياة العامة، وذهب بعضهم إلى محاولة استئصاله مما أدخل الحكومات في صراع ممتد ضد الحركات الإسلامية. وقد اكتسب مصطلح العلمانية دلالة سيئة في العالم الإسلامي منذ الانقلاب العثماني وإقامة النظام السياسي العلماني في تركيا في عام ١٩٢٤ على يد الديكتاتور مصطفى كمال أتاتورك.

ويشير الجندي إلى أن نكسة ١٩٦٧ كانت توقيتًا لإعلان الصيحة بضرورة علمنة الذات العربية وإخراجها من إطار الدين، وإتمام صفقة نقل العلمانية كاملة بعد أن بدأت بالتغريب والنظرية المادية والقانون الوضعي والمناهج الأجنبية في التربية والتعليم، وفصل الدين عن الدولة، ويقول العلمانيون إنه قد حان الوقت لتحرير الذات العربية من الإطارات الغيبية! - أي الإسلام بالذات- فقد جعلوا الإسلام سبب النكسة، ورأوا أن تجاوزها يقتضي إنهاء ثنائية العلمنة الجزئية مع مفاهيم الإسلام[1].

وقد روَّج العلمانيون في مصر والعالم العربي لكتاب "الإسلام وأصول الحكم" الذي ألفه عام ١٩٢٥ الشيخ علي عبد الرازق (١٨٨٨ - ١٩٦٦)؛ وكان الرجل من الأزهريين وقاضيًا بالمحاكم المصرية، وزعم في كتابه أن الإسلام دين لا دولة، وأن نظام الخلافة غير ملزم! وقد أثار الكتاب لغطًا كثيفًا ورفضًا عنيفًا أدى إلى إخراجه من هيئة كبار العلماء، وإن كان العلمانيون والغربيون قد امتدحوه وأشادوا به!

نتائج مأساوية

لقد خدعنا بأسلوب الغرب في الحكم والتربية والاجتماع، وجرينا وراء التجربة الغربية حتى نهايتها التي كانت سقوط فلسطين في يد الصهيونية، ثم جرينا وراء التجربة الماركسية حتى كانت نهايتها سقوط القدس في يد الصهيونية وتعرية المجتمع العربي

(1) السابق، ص ٩

تعرية كاملة، حتى تعرف أن الهزيمة والنكبة والنكسة التي توالت منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧؛ إنما كان مصدرها التماس أسلوب الغرب وحجب أسلوب الإسلام. وعندما حطمنا هذا القيد والتمسنا أسلوب الإسلام لم تمض إلا سنوات قلائل حتى كان نصر رمضان المؤزر الذي هو علامة على الطريق الجديد الذي يجب أن يسلكه المسلمون والعرب[١].

لقد كان هدف الصهيونية والليبرالية والماركسية – ومازال – ضرب الإسلام، والحرص أن يظل بعيدًا عن دائرة العمل والتنفيذ، وألا يمتلك المسلمون إرادتهم القادرة على الانتقال من الدائرة الضيقة التي حبسهم فيها الغزو الثقافي والتغريب إلى الدائرة المرنة التي أنشأها لهم الإسلام[٢].

ومن الحقائق التي تغفلها كتب التاريخ عن عمد ما طرحه رئيس الوزراء البريطاني جلادستون على مجلس العموم البريطاني عام ١٨٨٣ حين حمل المصحف، وقال: "ما دام هذا الكتاب باقيًا في الأرض فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين، بل نحن على خطر في أوطاننا".

يضاف إلى هذا قول اللورد اللنبي حين دخل القدس عام ١٩١٧:

"اليوم انتهت الحروب الصليبية"[٣].

الخروج من الإطار

إن الدعوة إلى علمنة الذات العربية تعني إخراجها من إطار الدين ومصدرها معروف كما سبقت الإشارة، والعرب يعرفون أن مصدر تحررهم هو فكرهم الأصيل. ومفهوم الإسلام الذي نشّأهم وكوّنهم وعلمهم على مدى التاريخ، وأن جوهر العصر مرتبط بالتماسهم مفاهيم الإسلام وتحرير أنفسهم من التبعية للفكر

(1) أنور الجندي، تحديات في وجه المجتمع الإسلامي، في دائرة الضوء – ٣٠، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ١١

(2) السابق، ص١٥

(3) السابق، ص ٢١

الوافد على أية صورة من صوره وإحياء فريضة الجهاد، والتماس مصادر الشريعة الإسلامية، وبناء التربية على النهج القرآني.

فالعلمانية ليست دعوة علمية خالصة لوجه الحق، ولم تستهدف تحرير الإنسان العربي، بل كانت تستهدف إخراجه من ذاتيته وقيمه ومزاجه النفسي، وتركيبه الاجتماعي لتقذف به في أتون العالمية والأممية[١].

إن منهج الإسلام المعرفي يقوم على أساس الوحي والعقل، والدعوة إلى عمارة الأرض والسعي في مناكبها، وبناء الحياة بالعمل. فهو ليس منهجًا غيبيًّا، ولكنه منهج متكامل، لا يقف عند حدود المحسوس، ولا يؤله المادة أو العقل أو الإنسان أو التاريخ[٢].

بينما الفكر الغربي المسيحي ليس إلا فكر المخططات التلمودية التي رسمتها بروتوكولات صهيون، ويعرف المسلمون والعرب الرابطة بين الفكر المستمد من هذه المخططات وبين الغزو الصهيوني الذي أحدث هزيمة ١٩٦٧ [٣].

إن الفكر الغربي تشكل من خلال مفاهيم العلم التجريبي الذي قدمه الإسلام، ومن خلال المفاهيم التي كانت قد امتزجت باسم المسيحية بالإضافة إلى جذور الوثنية اليونانية مما اختلط جميعه، وحاول الانصهار في بوتقة واحدة، وهي تعاني صراعًا حادًّا وأزمة عميقة تتقاسمها وتمزقها بين العلم والوثنية من ناحية، وبين مفاهيم الرهبانية والإباحية من ناحية أخرى[٤]..

أما المفهوم الإسلامي فقد فصل بين العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، وجعل لكل منها منهجًا خاصًّا يتفق مع طبيعته وماهيته[٥]..

(1) سقوط العلمانية، ص ١٣
(2) السابق، ص١١
(3) نفسه، ص ١٢
(4) سقوط العلمانية، ص ١٥
(5) السابق، ص ٤٩

وفي كل الأحوال فقد كان هدف اليهود نقل العلمانية إلى العالم الإسلامي للسيطرة على الفكر الإسلامي واحتوائه وإقامة إمبراطورية الربا العالمية[1]..

صراع ومقاومة

لقد ركز دعاة العلمانية في العالم الإسلامي على الإقليمية، والفصل بين الوطنية وبين مفهوم الأمة العربية من ناحية، وبينها وبين وحدة العالم الإسلامي من ناحية أخرى، كما عملت على الفصل بين هذه الأقطار ثقافيًّا وبين الفكر العربي الإسلامي[2]..

بالإضافة إلى صراع فكري عنيف دار بين العلمانية والتشريع الإسلامي، وسعى العلمانيون من خلاله إلى تشكيل نماذج من النخبة والمثقفين تتجاوز الدين ولا تقف عند اللغة العربية أو تاريخ الإسلام أو قيم القرآن ومنهجه الشامل[3]..

وفي خضم هذا الصراع لم يستسلم المسلمون للعلمانية ومخططاتها، بل قاوموا، وانكشفت حقائق وانبلجت أضواء، وكانت أولى بوارق المقاومة فشل القوانين الوضعية في تحقيق الأمن والطمأنينة للمجتمع بسبب قصورها وعجزها. وجاءت دراسات جامعية أوروبية تنصف الشريعة الإسلامية وتبين عن جوهرها وأهميتها وعظمتها وتراجع بعض التشريعات القانونية أمامها، واعترف أصحاب هذه الدراسات الغربية أن الإسلام سبق إليها. وفي مرحلة تالية اعترف الأوروبيون اعترافًا كاملًا بالشريعة الإسلامية في عدد من المؤتمرات الدولية ١٩٣٣ – ١٩٣٧ وما بعدها حيث انكشفت حقائق كثيرة إزاء ما يطرحه الاستعمار والتغريب من شبهات، وأهمها استقلالية الشريعة عن القانون الروماني. وقرر مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ بأن الشريعة الإسلامية:

(1) نفسه، ص٢٣

(2) سقوط العلمانية، ص ٢٧

(3) السابق، ص ٣١

١ – مصدر من مصادر التشريع العام.

٢ – صالحة للتطور.

٣ – تشريع قائم بذاته ليس مأخوذًا من غيره.

لقد صارت الشريعة الإسلامية مصدرًا أساسيًّا للقانون في كثير من دساتير البلاد العربية، مما أدى إلى سقوط العلمانية في مجال من أهم مجالات الحياة وهو التشريع[١]..

اليقظة الإسلامية

وفي مجال مقاومة العلمانية المتوحشة استطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تواجه حركة التبشير لإخراج القرآن والإسلام من التعليم في البلاد العربية بإنشاء المدرسة الإسلامية، وساعد على ذلك اعتراض كثير من الكتاب المسلمين على تغريب التعليم، وألحُّوا على إدخال الدين في التعليم العام، وتحرير مناهج التعليم من النفوذ الأجنبي[٢]..

كما امتدت المقاومة الإسلامية للنظام الاقتصادي الربوي الذي سيطر على ثروات الأمة الإسلامية، وجعلها رهينة في يد الغرب الاستعماري، وكتب العلماء المسلمون أبحاثًا كثيرة تؤكد على تحريم التعامل بالربا في الإسلام، وطرح البدائل الإسلامية لاقتصاد منتج مثمر مستقل، ونظام مصرفي لا يعتمد على الربا[٣]..

لقد وجدت محاولات فرض العلمانية من خلال التشريع والتعليم والاقتصاد؛ معارضة تتزايد مع كل يوم، بعد أن أثبتت فشلها الذريع[٤]..

(1) نفسه، ص ٢٨ – ٣٠
(2) سقوط العلمانية، ص٣٠ – ٣٢
(3) السابق، ص ٣٣ – ٣٤
(4) نفسه، ص ٣٥

جهد فكري

واستطاعت مدرسة اليقظة الإسلامية أن توقظ القلوب من أجل العمل الإسلامي، وأن تبذل الجهد الفكري لكشف أخطار التحديات التي تواجه الوطن الإسلامي ومحاولة تحطيم مؤامرة النفوذ الأجنبي التي كانت تعمل على تطويق العالم الإسلامي عسكريًّا وسياسيًّا[1]..

وقد تمثلت طلائع هذه المدرسة في العديد من القادة على امتداد العالم العربي والإسلامي، منهم على سبيل المثال: عبد العزيز جاويش وطاهر الجزائري، والقاسمي والطاهر بن عاشور والألوسي ورفيق العظم وشكيب أرسلان وتوفيق البكري وأحمد كمال باشا وأحمد الشريف السنوسي ومصطفى الغلاييني وأحمد زكي باشا وأحمد تيمور ومجدين العرب العلوي ومحمد رشيد رضا وفريد وجدي ومحمود سامي البارودي وحفني وعبد الرحمن البرقوقي.. وغيرهم من أجيال جاءت بعدهم وحملت راية اليقظة الإسلامية.

وأعتقد أن الصراع بين العلمانية المتوحشة والإسلام سيظل مستمرًّا، تغذيه رغبة الدول الكبرى في قهر الشعوب المستضعفة وفرض أنماط حياتها الثقافية والاجتماعية على أبنائها، ورغبة المسلمين في الدفاع عن هويتهم واستقلالهم الكامل.

***

(1) انظر: أنور الجندي، المدرسة الإسلامية على طريق الله ومنهج القرآن، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ٣ - ٤

obeikandi.com

ثالثًا: تحرير الواقع الثقافي: طه حسين نموذجًا

نخبة موالية

صنع التغريب بما يملكه من طاقة ونفوذ نخبة موالية له في بلاد العرب والمسلمين، تأتمر بأمره، وتتحرك بمنهجه وتصوره، تحيطها هالة من الشهرة وما يشبه التقديس، بحيث لا يجرؤ كائن من كان على مراجعة أفكارها أو التصدي لأقوالها وأحكامها، ومن يفعل فهو معارض لحركة التاريخ، وسابح ضد التيار الهادر، مما يعني أن على الأمة أن تأخذ بما يُلقى إلى أسماعها فتتقبله دون مناقشة وتعمل من خلاله، وإلا فإنه محكوم عليها بالتخلف والرجعية والعودة إلى الوراء.

وإذا كان التغريب قد تمت له السيطرة على النشر والإعلام، فهو لا يسمح بتمرير ما يخالف منهجه وتصوراته، وما يسمح به يتحول إلى ما يشبه الأصنام والأوثان يعبدها الناس ويدورون حولها. هكذا كان شأن مدرسة اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧) المندوب السامي للاحتلال الإنجليزي في مصر، فقد صنع نخبة رائدة في التغريب بدهائه وذكائه؛ لتكون مددًا للاحتلال واحتياطيًّا له؛ يجعل الشعب يتقبل الاحتلال ويتعايش تحت رايته، ويفرط في مصالح الوطن الرئيسية، وينفذ أفكاره المسمومة في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بما يضعف الأمة ويمحو هويتها ويضيع حقوقها.

المقاومة

في المقابل فإن حركة اليقظة الإسلامية كان عليها أن تقاوم الاحتلال الأجنبي عن طريقين، الأول: مواجهة الجمود والعجز والتقصير والجبرية بفهم الإسلام فهمًا أصيلًا مستمدًا من منابعه. والآخر: مدافعة الاحتلال ومقاومته، فكانت بذلك تحرر العقيدة كما تحرر الأوطان. وقد تحملت اليقظة في سبيل ذلك كثيرًا من التضحيات والمعاناة والاضطهاد، وكان في طليعة رواد اليقظة الإسلامية: السلطان العثماني عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعبد العزيز الثعالبي والشيخ القسام، وعشرات غيرهم، قاموا بإزعاج الاستعمار ليخرج من بلاد المسلمين.

وقد استطاع الغزاة أن يصنعوا رجالهم من أهل البلاد المحتلة ليلتقوا بهم في منتصف الطريق، ويتفاهموا معهم على حساب أوطانهم، ويؤمنوا أنه لا سبيل لحرية الأوطان إلا بالتفاهم مع المحتل والتعامل مع الغاصب!

رموز شبه مقدسة

كان من الطبيعي بالنسبة لباحث مثل أنور الجندي أن يهتم بتحرير الواقع الثقافي، وكشف زيفه وأباطيله، ويفتش في حقيقة الرجال الذين تبناهم الاحتلال وجعلهم رموزًا شبه مقدسة في الأدب والفكر والحقل الثقافي بصفة عامة أمثال أحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمود عزمي، وعلي عبد الرازق، وسلامة موسى، ولويس عوض. وقد تصدى في كثير من كتبه لهذه الرموز وأمثالها وخاصة طه حسين، فقد عقد لهم كتبًا أو فصولًا عديدة امتدت على كثير من صفحات كتبه، ثم قدم للحياة الثقافية كتابه الذي أحدث ضجة كبيرة في حينه وهو "طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام" الذي طبع أكثر من مرة، وأتبعه بكتابه "محاكمة فكر طه حسين" الذي كان

ردًّا علميًّا على ما أثاره الغاضبون من كتابه الأول. وكان قد أصدر قبل ذلك كتابًا صغيرًا بعنوان "أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث: أحمد لطفي السيد وطه حسين". وإذا عرفنا أن الأول كان يلقب بأستاذ الجيل والآخر يوصف بعميد الأدب العربي؛ أدركنا دلالة العنوان "أكذوبتان" بما يعني أن الرجلين لا يمثلان شيئًا من الألقاب أو الصفات التي تطلق عليها، وهي ألقاب وصفات تتجاوز أستاذ الجيل وعميد الأدب العربي إلى ألقاب وصفات أخرى تضعهما في دائرة التقديس والصنمية!

طبقة الباشوات

إن أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذي يلقب بأستاذ الجيل والمفكر والفيلسوف ومدير الجامعة ورئيس دار الكتب المصرية ورئيس تحرير جريدة الجريدة وزعيم حزب الأمة وأبي الليبرالية المصرية؛ لم يكن إلا معبرًا عن طبقة الباشوات التي خدم أغلبها الاحتلال البريطاني، وكان صاحب آراء صادمة منها أنه كان يرى ألا ضرورة لتعليم أبناء الشعب المصري أو أبناء الأمة، وإنما يُكتفى بتعليم أبناء الذوات وحدهم، ويؤمن أن الغرب هو المثل الأعلى في نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ثم إنه يكره الدولة العثمانية والخلافة والجامعة الإسلامية والعروبة ويدعو إلى العامية والإقليمية الضيقة "مصر للمصريين"، وينفذ تعاليم مدرسة اللورد كرومر التي تمكنت من قيادة المصريين كما يريد الإنجليز الغزاة[1]..

لقد وصفه العقاد بقوله:" هذا لطفي السيد، ليس بالفيلسوف ولا هو بأستاذ أحد، ولم يكن في كل ما كتبه وقاله في حياته دليل واحد على أكثر من أنه رجل متحذلق ضيق الاطلاع يملؤه الغرور..." وهذا أهون ما وصف به العقاد أستاذ الجيل كما يلقب، أما الأوصاف الأخرى فالمجال يضيق عنها[2]..

(1) انظر: أنور الجندي، أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث، دار الأنصار، القاهرة، د.ت، ص٣ - ٥
(2) كوكب الشرق، ٣١يوليو ١٩٢٨

كتاب أرسطو

ويشير أنور الجندي إلى أن أحمد لطفي السيد لم يترجم كتاب الأخلاق لأرسطو الذي وضع اسمه عليه بوصفه مترجمًا له، وهو كتاب ظهر على الناس بدون مقدمة للمترجم كما جرت العادة، وكما تقتضي طبيعة الأعمال المترجمة ذات القيمة. ويرجع ذلك إلى أن قسم الترجمة في دار الكتب هو الذي قام بنقل الكتاب عن النص الفرنسي إلى اللغة العربية طبقًا لشهادة الأستاذ أحمد عابدين مدير دار الكتب آنئذ، وقد جاءت الترجمة في غاية التعقيد؛ لأن مستوى المترجمين المتفاوت كان دون مستوى المترجم الفرنسي (سانهيز) الذي نقل الكتاب من اليونانية إلى الفرنسية[1]..

كتاب الأيام

وفيما يتعلق بطه حسين (١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ = ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م) فالأمر أشد خطورة؛ حيث لقي اهتمامًا كبيرًا من الشباب الذي قرأ له كتاب الأيام، وتأثر به انطلاقًا من تعاطف الشباب مع رجل كفيف جاهد في سبيل العلم حتى أحرز مركزًا مرموقًا. بالطبع لم يقرأ أغلبهم الشعر الجاهلي أو مستقبل الثقافة في مصر، وقد استغل طه حسين العطف والشفقة والرحمة في سبيل الوصول إلى القمة، فلما وصلها هاجم أستاذته وحطم آراء العلم، وجرى وراء البريق الذي قدمته له القوى التي يستطيع أن تصنع له الأقلام والكتاب التي تشيد به وترفعه إلى عنان السماء.

يعلن أنور الجندي أنه لا يغض من قدر طه حسين صاحب الأيام، ولا يضيره القول: إن طه حسين من أصحاب النثر الفني، وإنه من المدرسة المبتدعة، أو البيانية كما أسميتها أنا، وهي المدرسة التي بدأت بالمنفلوطي وأكملها الرافعي والزيات

(1) انظر: أنور الجندي، أكذوبتان في الأدب العربي الحديث، ص ٦ وما بعدها، ص ٢٨ - ٣٣

والبشري وآخرون، كما لا يستطيع أحد أن ينتقص من موسيقى الأسلوب لدى طه حسين وفنه وبلاغته التي ترجع أساسًا إلى ما استطاع أن يمنحه له القرآن الذي حفظه، والأزهر الذي اتصل به، والتراث الإسلامي الذي تعرف إليه في صدر شبابه، فما ذلك النثر الفني إلا من معطيات الفكر الإسلامي أساسًا. ومن أجل هذا وجد كتاب الأيام قبولًا في النفس الإسلامية العربية في هذه البلاد المقدسة التي ارتبطت بالقرآن الكريم وبيانه، وكانت حواشي فكرها وأعماقه مرتبطة ببلاغة الأسلوب النبوي، وأدب الصحابة والثقافة الإسلامية على مدى قرون[1]..

مبالغات وتضخيم

بيد أن طه حسين دار حوله زيف كثير ومبالغات حاولت تضخيمه لحساب الذين استعملوه ضد المسلمين والعرب.

ويكشف الدكتور محمد صبري السربوني(١٨٩٤ - ١٩٧٨)، بعض الأكاذيب التي تتعلق بشخص طه حسين وسلوكه في حياته العلمية والعامة بحكم أنه كان زميلًا له في السوربون. يحكي بعض المواقف التي ارتبطت بعلاقته بالجامعة والأساتذة، فيقول:

"دخلت أنا وطه حسين امتحان الليسانس في عام واحد، وعندما ظهرت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمي ولا اسمه، وفي اليوم التالي وجدت اسمه محشورًا بين السطور فذهبت إليه وأبلغته".

وقد أثار حشر اسم طه حسين بين السطور كثيرًا من الدارسين المصريين. فقد قام زميل آخر هو جلال شفيق بكشف الحقيقة، فقال: إن طه حسين ذهب إلى الأساتذة وهم مجتمعون، واستدر عطفهم، وذكرهم بأنه على أبواب الزواج بفرنسية، وأنه غريب وأعمى؛ فرثوا له!

(1) انظر: السابق، ص ١٨

ويدعم هذا ما جاء في كتاب سامي الكيالي عن طه حسين؛ حيث يقول في مقدمة رسالته للدكتوراه:

"وليسمح لي بأن أعتذر عن أسلوبي الفرنسي إذا ما بدا بلا ريب في كثير من المواضع ركيكًا أو خاطئًا، وكذلك عن الأخطاء المطبعية التي قد تقع في هذه الرسالة، فما كنت إلا (غريبًا وأعمى).

ويسجل الدكتور طه أنه في امتحان الدكتوراه بعد ذلك بعامين أو ثلاثة دخل لجنة الامتحان ودخلت معه زوجته تحمل طفلها، فلما رآها رئيس اللجنة ابتسم. فأخذت ورقة من أمامه وكتبت فيها كلامًا، فلما قرأه قال: "إذًا سنخفف عنك أسئلة الامتحان:

حدثنا عن تاريخ الدولة الأموية.

فماذا كتبت في الورقة وماذا فهم الأستاذ؟

هذا رجل كفيف جاء إلى فرنسا وتزوج من فرنسية، وهو عائد إلى بلاده ليكون لسانًا للثقافة الفرنسية والغربية في بلاده ولاءً وأصهارًا، وهكذا كانت تسير الأمور بالعطف والرثاء والإحسان إلى كفيف أعمى[1]..

كلام لا يُسكت عليه

من جهة أخرى يشير الدكتور محمد صبري السربوني، إلى أن طه حسين لم يكن صادقًا فيما أورده في كتاب الأيام، من أنه كان يدرس في ثلاثة معاهد أو أربعة في باريس، وبعد أن عدد طه حسين مجموعة من الأساتذة الذين درس على أيديهم، يقول السوربوني:

"إن هذا الكلام لا يُسكت عليه؛ لأن طه حسين لم يدرس على كل هؤلاء، فإن دارس التاريخ لا بد أن يتخصص إما في القديم أو العصور الوسطى أو التاريخ الحديث، وقد كان طه حسين متخصصًا في التاريخ القديم فكيف درس تاريخ الثورة الفرنسية، وكيف

(1) انظر: السابق، ص ١٦، ١٥

درس البيزنطي والتاريخ الحديث. والدكتور طه كان قليل التردد على السوربون لعاهته، ولا أذكر أبدًا أني رأيته يستمع لهؤلاء، وكونه استمع إلى محاضرة أو محاضرتين لأستاذ من الأساتذة لا يعني هذا أنه درس عليه، ومن ثم لا يعقل أنه تتلمذ على هؤلاء جميعًا".

ويضيف السربوني موضحًا طبيعة دراسة طه حسين للتاريخ القديم ودفاع بعض تلاميذه عنه قائلًا: "إن ما درسه طه حسين هو اللغة اللاتينية لتعينه على فهم التاريخ القديم، أما الذين نقلوا عن طه حسين كالكيالي وكامل زهيري؛ فإن معلوماتهما قاصرة بالنسبة للدراسة في السوربون"[1]..

الجانب الفكري

وإذا انتقلنا من الجانب الشخصي والسلوكي المرتبط بطه حسين إلى الجانب الفكري، فإننا نلاحظ أن أفكاره التي أطلقها في الحقل الأدبي والفكري وشغلت الناس طويلًا؛ قد سقطت بعد أن تجاوز الفكر الإسلامي المعاصر مرحلة التبعية للفكر الغربي الوافد إلى مرحلة أشد قوة وأصالة ورشدًا، ويمكن رصد عشرة أفكار رئيسية لطه حسين، تم إسقاطها، وقد فصلها أنور الجندي في كتابه "طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام"، ونوجزها فيما يلي:

ابن خلدون

أولًا: ادِّعاؤه أن ابن خلدون لم يكن مؤسسًا لعلمي الاجتماع والتاريخ، وقد استقاه من الباحث اليهودي "دور كايم" (١٨٥٨ - ١٩١٧)، فقد كان طه يهدف إلى إرضاء اليهودي المشرف على رسالته في السوربون، والتقرب إلى الفرنسيين بازدراء أهل المغرب العربي الذين لم يتقبلوا المدنية الغربية، وسخر من جهادهم في سبيل مقاومة الاستعمار.

(1) انظر السابق، ص ١٨

ثانيًا: كان رأيه في انتحال الشعر الجاهلي محل استهجان كثير من الباحثين الذين كشفوا زيفه مثل الرافعي ومحمد فريد وجدي ولطفي جمعة ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد الخضر حسين وناصر الدين الأسد الذي كشف عن المصادر التي سرق منها الفكرة، وكانت لمبشر مسيحي استتر تحت اسم "هاشم العربي"، وعرف من بعد بأنه الدكتور "زويمر"، ومن كاتب يهودي هو "مرجليوث".

الأساطير

ثالثًا: إحياء الأساطير في كتابه "على هامش السيرة"، وقد دعا إلى دمجها في السيرة النبوية بعد أن أبعدها مؤرخو المسلمين، وأعطى نفسه مطلق الحرية في الإضافة إليها. وقد هاجم هذا الاتجاه أصدق أصدقائه، وهو الدكتور محمد حسين هيكل الذي ألف "حياة محمد". وقد صف الرافعي "على هامش السيرة" بأنه "تهكم صريح".

رابعًا: ادِّعاؤه أن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام ليسا موجودين حقيقة، وإن أشار إليهما القرآن الكريم. وقد لقي هذا الادعاء معارضة شديدة، وأثار شبهات حول موقف طه حسين من الإيمان بالله ومن الإيمان بالقرآن والنبوة، وتبين من بعد أنه كان خدمة لهدف الصهيونية التلمودية التي أنكرت صلة إبراهيم وإسماعيل بالجزيرة العربية، وسكتت عن بناء البيت، وحاولت أن تجعل وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام محصورًا في ابنه إسحق، أي بني إسرائيل وحدهم، وكان يبغي من وراء ذلك خدمة الصهيونية، فضلًا عن تحريض طلابه في كلية الآداب على نقد القرآن الكريم بوصفه كتاب أدب، كما أشارت محاضر جلسات مجلس النواب المصري عام ١٩٣٣.

عقلية مصر

خامسًا: زعمه أن عقلية مصر يونانية غربية كما ورد في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، وأن الإسلام لم يغير هذه العقلية، ثم إعلانه أن على المسلمين والعرب أن يأخذوا حضارة الغرب: خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحمد منها وما يعاب، وقد كشف كثيرون زيف هذا الرأي.

سادسًا: الادِّعاء أن مصر فرعونية وليست عربية، ولن تكون عربية أبدًا؛ لأن العرب في زعمه غزاة لمصر مثل الرومان والفرس. وأدى هذا الادعاء إلى حرق كتب طه حسين في ميدان عام بدمشق.

كلية لاهوتية

سابعًا: دعوته إلى إلغاء الأزهر، وتوحيد التعليم الأساسي وجعله مدنيًّا غربيًّا، لا يدرس فيه الدين حتى يصبح الأزهر "كلية لاهوتية" مثلما حدث في تركيا والغرب.

ثامنًا: ذكره أن المتنبي شاعر العربية الأكبر منكور الأب، وأنه يمكن أن يكون لقيطًا جاء من طريق غير شرعي. وتلك سبة في التحليل أبطلتها التحقيقات العلمية التي أجراها كثيرون، منهم محمود شاكر وعبد الغني الملاح، كان واضحًا أن طه يريد تحطيم الشخصيات البارزة في الأدب العربي، وهو ما يتطابق مع هوى المستشرقين.

الاتصال بالصهيونية

تاسعًا: هناك شبهة اتصاله بالصهيونية، ومن دلائلها إشرافه على دار الكاتب المصري عام ١٩٤٦ التي كان يمولها الصهيوني إسرائيل ولفنسون (١٨٩٩ - ١٩٨٠) تلميذه في كلية الآداب؛ الذي ألف كتاب "اليهود في جزيرة العرب" وقدمه طه إلى الناس مشيدًا به، والكتاب خلاصة دعاوى اليهود وأكاذيبهم حول فلسطين.

عاشرًا: دفاعه عن عبد الله بن سبأ وإنكار وجوده ودوره في فتنة عثمان؛ اعتمادًا على مصادر أحياها الصهاينة، في مقدمتها كتاب (أنساب الأشراف للبلاذري) حيث نشروا منه الجزء السادس فقط في تل أبيب، وهو مصدر إنكار دور عبد الله بن سبأ، ولا ريب أن طبع جزء واحد من كتاب متعدد الأجزاء وجعله مصدرًا في بحث خطير كهذا يمثل أمرًا أشد خطورة.

الوقوف أمام الكعبة

ويتساءل أنور الجندي بعد عرض هذه الآراء والأفكار أو الادعاءات:

كيف استطاع طه حسين أن يقف أمام الكعبة عندما زار مكة عام ١٩٥٤ رئيسًا للجنة الثقافية بالجامعة العربية، وكيف طاف بها وهو الذي أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل من قبل؟[1].

وقد فصل الأستاذ أنور الجندي- رحمه الله- هذه الأفكار والآراء ودعمها بالوثائق والأسانيد في كتابه الذي أثار ضجة كبيرة عند صدوره عن دار الاعتصام بالقاهرة، عام ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م).

وهنا أذكر أن الأستاذ أنور كان يطبع ملازم كتبه بما يتوفر له من معاشه البسيط على ورق جرائد أسمر (ستانيه) وفي عدد متواضع من النسخ يتراوح بين ألف وثلاثة آلاف نسخة، وتقوم دار الاعتصام بتغليفها في غلاف مقبول، وتبيعه بسعر رخيص حسبة لله يحتسبها المؤلف.

وقد ظهرت الطبعة الأولى مليئة بالتصحيف وفقدان علامات الترقيم، فقد كان الرجل يتولى التصحيح بنفسه في ظل مشاغله العديدة وسنه المتقدم. وحين نفدت الطبعة الأولى في زمن قياسي، بعد أن أحدثت رد فعل صاخبٍ في الصحف والمجلات والإعلام، رأت دار الاعتصام أن تقوم بنفسها بإعادة طبع الكتاب، وساعد على ذلك أنها امتلكت بالتقسيط جهاز جمع آلي، وكان كتاب طه حسين أول ما جمعه هذا الجهاز، وأسند إليّ تصحيح الكتاب في طبعته الأولى؛ ليكون أصلًا يتم جمع حروف الطبعة الجديدة على أساسه، ثم تولى غيري تصحيحها في صورتها النهائية، فخرجت الطبعة الجديدة جيدة وخالية من كثير من التصحيفات.

(1) انظر: أكذوبتان في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص ٢٠ - ٢٦

مدخل مهم

وقد فصل الكتاب حياة طه حسين وأفكاره في ثلاثة أبواب، مهد لها بمدخل مهم للغاية ضمنه قائمة بالأبحاث التي ناقشت فكر طه حسين وأدبه في حياته وبعد رحيله، مع ذكر الموضوعات التي أثارت ضجة حول الرجل واقتضت مناقشته ومعارضته في مصادر آرائه وأفكاره التي نقل عنها وهي في الغالب أجنبية أو لا يوثق فيها، ثم رصد أهم ردود الفعل على المستوى العام.

في الباب الأول: حياة طه حسين مرحلة التكوين والإعداد، ويرصد فيه مطالع حياته، ورحلته إلى أوروبة وآثارها، وارتماءه في أحضان الاستشراق، واستسلامه للتبعية الفكرية الغربية، ثم الولاء التام للسياسة الغربية.

وفي الباب الثاني: يتناول مرحلة النضوج والتألق في حياة طه حسين عبر الجامعة، ووزارة المعارف، والصحافة والسياسة الحزبية، ومجمع اللغة والجامعة العربية، والمحاضرات والمؤتمرات.

أما الباب الثالث: فيتضمن آراء طه حسين وصراعه مع أهل جيله من خلال أفكاره، وطريقة البحث، وظاهرة التحول والتناقض، والأسلوب والأداء الفني، والاستجواب البرلماني، وأهل جيله ومواقفهم تجاهه.

وتشير الخاتمة إلى أهم ما جاء بالكتاب، وتبرز الدافع إلى تأليفه وتَعِد بتقديم بحث آخر جامع في الموضوع نفسه، وهو ما جاء كثير منه في كتابه "محاكمة فكر طه حسين".

وفي الطبعة الثانية أضاف أنور الجندي فصلًا سماه الفصل ما بعد الأخير تضمن ردودًا ومناقشة لما قوبل به الكتاب في طبعته الأولى من مؤيدي طه حسين.

التريث في الحكم

ويشير أنور الجندي إلى أن الدكتور طه حسين قد اكتسب شهرة واسعة، وأنتج إنتاجًا غزيرًا، وكان له نشاط واسع في الجامعة ووزارة المعارف والصحافة والتأليف.

لذا يتريث الجندي في الحكم على الرجل وآثاره قبل إضاءة الطريق إلى فهمه بتقديم الوقائع والوثائق المتصلة بحياته وفكره على النحو العلمي الصحيح حتى يجيء الحكم منصفًا عادلًا غير مشوب بشيء من التحامل أو التحيز[1]..

ولعل أهم ما أثار الناس ضد طه حسين كان ما جاء في كتابه في الشعر الجاهلي، وتعلق بفكرة الشك، وإنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مما يعني تكذيب القرآن الكريم، فضلًا عن زعمه أن الشعر الجاهلي منحول، وأنه من وضع الشعراء الإسلاميين، فكان الاستجواب البرلماني الشهير الذي جاء مع معركة أدبية صاخبة صنعت معركة برلمانية دارت رحاها بين نواب البرلمان في ١٤ سبتمبر ١٩٢٦، حيث قدم النائب عبد الحميد البنان نائب الجمالية اقتراحًا من ثلاثة أقسام: مصادرة كتاب في الشعر الجاهلي، إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة، إلغاء وظيفته. وواصل النواب، ومنهم عبد الخالق عطية والشيخ القاياتي سلسلة من الاتهامات والانتقادات لطه حسين بأنه يطعن في الدين. وقد سلم معالي وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح وتكلم دولة عدلي باشا رئيس الوزراء عن القسم الثاني وجرت بينه وبين دولة الرئيس "سعد زغلول" مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية انتهت بأن ذكر عدلي باشا أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرفات الحكومة، وذكر مسألة الثقة بالوزارة. مما دفع البنان إلى إقامة دعوى قضائية ضد طه حسين، وحققت النيابة معه في ١٩ أكتوبر عام ١٩٢٦.

(1) انظر: أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص٧

مناقشات البرلمان

وهاجم سعد زغلول في هذه المعركة طه حسين قائلًا: إن الدين متين وليس الذي شك فيه زعيمٌ ولا إمامٌ حتى نخشى من شكه على العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟".

وقد كان طه حسين محل مناقشات في البرلمان منذ ظهر كتابه في الشعر الجاهلي الذي عدله وغير فيه وسماه في الأدب الجاهلي؛ حتى عام ١٩٤٠ حيث تقدم النواب: عبد الرحمن فهمي ورضوان السيد وأحمد والي الجندي ومحمد عبد اللطيف دراز وأحمد عبد الفتاح معبد باستجواب للحكومة عن الأسباب التي حدت بوزارة المعارف إلى إسناد وظيفة مراقب الثقافة العامة إلى رجل عرف بنزعات وآراء تخالف تقاليد البلاد وأخلاقها ودينها. وقد حملت بيانات النواب أمام تفصيلات مسهبة لأسباب الاستجواب والتهم الموجهة إلى طه حسين[1]..

بيد أن الفصل بعد الأخير الذي ألحقه الجندي بكتابه في الطبعة الثانية يقدم صورة واضحة لتأثير طه حسين في النخب التي لا تستريح للإسلام بوصفه وحيًا ومنهجًا للحياة، وقد برز غضب الشيوعيين والليبراليين على وجه الخصوص عقب ظهور الكتاب الذي أطاح من خلال الوثائق والنظرة العلمية بالقداسة الزائفة والهالة الكاذبة التي حاول التغريب والغزو أن يحيط بها الدكتور طه، ويفرضه زعيمًا ومصلحًا ومفكرًا على الإسلام والمسلمين. لقد كان الكتاب قنبلة هزت المعسكر التغريبي، ومن ثم تشكلت هيئة للدفاع عن طه حسين تتحرك في اتجاهين:

الأول: الدفاع عن الرجل بوصفه زعيمًا وبطلًا وقائدًا يمكن أن يوضع في صفوف القمم التي عرفها الإسلام في العصر الحديث.

(1) انظر تفاصيل الاستجواب في السابق، ص ١٧٧ - ١٩٧

الآخر: الادعاء أن طه حسين رجع عن آرائه في آخر حياته وعاد إلى الإيمان بالله حين ألف على هامش السيرة وبكى أمام الكعبة.

خلط للأوراق

وقد صحبت عملية الدفاع عن طه حسين من جانب مؤيديه شتائم وسباب وخلط للأوراق مما تغاضى عنه أنور الجندي؛ حيث ركز على القضايا الجوهرية في ردوده على هؤلاء المؤيدين.

بالإضافة إلى اتهام أنور الجندي أنه لم يعارض طه حسين في حياته، بل أشاد به قبل رحيله في مقالته "أدباء معاصرون: طه حسين" التي كتبها ونشرها في مجلة "الأديب" اللبنانية المحتجبة (١٩٤٢ - ١٩٨٣م) في عدد يوليو ١٩٥٣م، الجزء السابع، السنة الثانية عشرة، ص٥١،٥٢، ومقالته الأخرى بعنوان "صفحات مجهولة من حياة طه حسين ١٩٠٨ - ١٩١٦م"[1]، وكلتاهما تفيض إعجابًا وتقديرًا، ويرد الجندي على ذلك بأنه كتب في حياة طه حسين يرد على مخالفاته للمفاهيم الإسلامية ومعارضته للأصالة العربية واندفاعه في صف التغريب والغزو الفكري، ويكشف عن آرائه الخطيرة في أبرز كتبه: في الشعر الجاهلي، حديث الأربعاء، مستقبل الثقافة في مصر، منذ عام ١٩٥٧ أي قبل وفاة طه حسين بنحو عشرين عامًا في كتبه:

١ - المعارك الأدبية.

٢ - الصحافة السياسية.

٣ - الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقية.

٤ - المساجلات والمعارك الأدبية[2].

(1) مجلة "الهلال"، فبراير ١٩٦٦م - عدد خاص عن طه حسين

(2) الصادر طبعته الأولى عن دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٢، وطبعته الثانية عن مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٩هـ =٢٠٠٨م

أخطر كتاب

وعند صدور كتاب (الصحافة السياسية) عام ١٩٥٩ أعلنت عنه الصفحة الأدبية للأخبار، بأن صورت غلاف الكتاب، ونشرت بجانبه صورة طه حسين وصورة العقاد، وقالت إنه أخطر كتاب صدر يقدم تناقضات الكتاب في هذا الوقت المبكر- وطه حسين حي يرزق- ويكشف عن تناقضاته بين الهجوم على سعد زغلول ومدحه، وبين شتم الوفد والدفاع عنه.

وقد ضم كتاب (المعارك الأدبية) للجندي أكثر من عشرين معركة كان فيها طه حسين في الجانب السلبي، وتناول كتابه الآخر المساجلات والمعارك الأدبية؛ الآراء الخطيرة في كتب الدكتور طه: الفتنة الكبرى، مع المتنبي، على هامش السيرة. ويعد كتاب طه حسين.. حياته وفكره في ميزان الإسلام؛ بلورة لهذه المعارك والمساجلات[1]..

ومن الطبيعي أن يشيد الناس بموضوع جيد أو كتاب جميل لكاتب ما، ولكنهم حين يطلعون على مجمل إنتاجه، وخاصة إذا كان إنتاجًا غزيرًا به أخطاء وسلبيات وتجاوزات؛ أن يتغير موقفهم، طالما كانوا يبحثون عن الصواب والموضوعية وهما - فيما أتصور - غاية أنور الجندي.

أشد المدافعين

كان الكاتب اليساري الراحل رجاء النقاش (١٩٣٤ - ٢٠٠٨م) من أشد المدافعين عن طه حسين إلى جانب آخرين في الصحف المجلات (العربي الكويتية، الهلال، الجمهورية، الجديد، الإذاعة والتلفزيون، أكتوبر، صباح الخير..)، وقد خصه الأستاذ أنور برِدٍّ خاص.

وكان رجاء النقاش يشرف على بعض أعداد الهلال فكتب مقالًا مطولًا نشره في عددين متتاليين (١٩٧٦).

(1) انظر: السابق، ص ٢٢٦ وما بعدها

ورأى الأستاذ أنور أن خطأ رجاء النقاش الذي أقام عليه رده هو وقوعه تحت تأثير طه حسين وعجزه عن فهم أعماقه النفسية وله عذره بحكم السن، فقد ولد مع الثلاثينيات وعايش الفترة التي تألق فيها طه حسين في ظل حزب الوفد والجامعة والوزارة، وتأثر به لأكثر من عامل ربما من ناحية الحزبية وربما من ناحية الاعتقاد الذي عاش عليه جماعة من المثقفين بأن طه حسين هو الذي فتح لهم الطريق للتحرر من القيم الإسلامية التي يسخرون منها ويرونها من التقاليد البالية!

ويبدو أن الأستاذ أنور تحرج من أن يقول إن رجاء النقاش يساري، واليساريون يتبنون كل الأطروحات التي تصب في تشويه تاريخ الإسلام أو قيمه أو ثوابته أيّا كان صاحبها، وهو ما وجدوه عند طه حسين في عديد من كتبه وآرائه.

السخرية من الأمة

ويؤكد أنور الجندي أن طه حسين كان ساخرًا من الأمة وقيمها ودينها وتاريخها المضيء، وكان مراوغًا، يلعب بكل شيء، وقد كشف كثير ممن كتبوا عن هذه الخلة التي هي مفتاح حياته الأكبر وكل ما فيه من خُلال تبعٌ لها. فهو أشبه برجل ينصب للناس فخًّا أو يحفر لهم حفرة في طريق ويختبئ لينظر حتى يقع فيه الناس فيضحك ويخرج لسانه ساخرًا، فإذا خوفته خاف وانطوى حتى يزول الخطر، فإذا زال الخطر عاد إلى سخريته وأفخاخه ومؤامراته.

لقد زيف قيم الأخلاق في الجامعة بين الأساتذة والطلاب، وبين الطلاب والمراجع، وأساليب البحث مما رواه تلاميذه وخاصة الدكتور نجيب البهبيتي. كما أفسد الحياة الجامعية ودفع الشباب والشابات إلى الاختلاط والفساد، وأقام الحفلات الراقصة في البيوت وسمح للأساتذة الأجانب بإقامة الندوات وتشكيك الطلاب في عقائدهم، وفتح أبواب الحرية إلى غايتها فكان لا ينجح ولا يفوز ولا

يتقدم إلا هؤلاء الأتباع المنافقون الذين يتزلفون إليه وينتظرونه على باب سيارته ويقبّلون يده ويكوّنون الخلايا الخطيرة التي تعمل للتغريب والغزو الثقافي.

إنه لا يتوقف عن السخرية من الأزهر ورجاله وكل صاحب خلق. وقد صرف من حوله ممن حافظوا على الأخلاق والقيم وأضرّهم وحجبهم عن المناصب والوظائف.

وهذه الصورة الحقيقية عن الدكتور طه غابت عن رجاء النقاش- كما يقول أنور الجندي- فراح يتحدث عنه كأنه زعيم أو علم أو بطل لا تجوز عليه الاتهامات والشبهات.

ويتابع أنور الجندي رصد سلبيات طه حسين الشخصية والعلمية والعامة - كما يراها - ليقنع رجاء النقاش أن صورة الرجل ليست كما يتصورها هو ورفاقه فالخطر كل الخطر أن تظل آراء طه حسين الزائفة والمسمومة تعمل عملها في الأجيال الجديدة. ولم يعد في الإمكان خداع هذه الأجيال بإمكان أن يكون المسلم ملحدًا ومؤمنًا أو مسلمًا وماركسيًّا في آن.

إن تقلبات طه حسين وتناقضاته وتحولاته وراء من يحميه أو يحقق له الشهرة تجعل إسقاط الهالة الزائفة من حوله أمرًا خلقيًّا كي لا تستمر خديعته للأجيال الجديدة، فالرجل- أي طه حسين صاحب هوى ومطامع ومصالح، ويحب فيبلغ غاية الحب، ويبغض فيبلغ غاية البغض، ويعبر عن هذه الحقيقة عشرات ممن عاشروه وخالطوه وتتلمذوا على يديه في مقدمتهم سكرتيره فريد شحاته الذي صاحبه أربعين عامًا، والدكتور إبراهيم اللبان والدكتور نجيب البهبيتي.

ثم إنه أقام فكره كله على التشكيك واللا أدرية والتساؤل وإثارة الشبهات ودون أن يقدم إجابة واحدة تملأ القلوب طمأنينة والنفوس رضا. ثم إنه كان بارعًا في الهجاء أشد براعة وبارعًا في المديح أشد براعة؛ فهو صاحب قلم مباع لكل من يفيد الرجل، وكان أكبر من أفادوه وأغدقوا عليه هم رجال التغريب؛ فله بهم روابط نسب ومصاهرة[1]..

(1) انظر السابق، ص ٢٣٦ - ٢٤١

تغيير المواقف

وفي سياق تغيير طه حسين لآرائه ومواقفه وخاصة ما يتعلق بالإسلام والإيمان، فإنه تجدر الإشارة إلى أن الدكتور محمد عمارة أصدر كتابًا بعنوان "طه حسين: من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام"، صدر أول مرة ملحقًا لمجلة الأزهر في عددها الصادر (شهر ذي القعدة ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م)، ثم صدر في طبعة أخرى عن دار الفكر، القاهرة، ٢٠١٥، اجتهد من خلاله في البرهنة على تراجع طه حسين عن أفكاره التي أثارت لغطًا كبيرًا وغضبًا عظيمًا؛ فذكر أنه في سنة ١٩٣٣ خاض بفروسية وشجاعة مبهِرة، معركةً شرسة ضدَّ التنصير والمنصِّرين، فكتَب ستَّة مقالات ضدَّ زلزال التنصير، هي: "عدوان"، "هزل"، "حزم"، "فتنة"، "توفيق"، "تجن"، في صحيفة (كوكب الشرق)، وتوقف "عمارة عند ما أسماه "مرحلة الإياب الفكري الصريح والحاسم إلى أحضان العروبة والإسلام (١٩٥٢ - ١٩٦٠م)، وفيها ظهرت تحوُّلات فِكر طه حسين أكثر فأكثر نحو العروبة والإسلام، ومن أبرز هذه التحولات، تأكيدُه على حاكميَّة القرآن، والانتقال من الفِرعونيَّة إلى العروبة التي صاغَها الإسلام، - وزيارته لأرض الحجاز ١٩٥٥م، وما حصَل فيها من أجواء إيمانية. ووصيته أن يحفر على قبره الدُّعاءُ النبوي:

"اللهمَّ لك الحمد، أنت نور السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت قيُّوم السموات والأرض، ولك الحمد، أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، والجَنَّة حقٌّ، والنار حقٌّ، والساعة حقٌّ، والنبيُّون حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، وبك آمنتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنتَ إلهي لا إله إلَّا أنتَ".

طه حسين أوّابًا

ولقي صدور الكتاب ترحيبًا لدى عديد من الإسلاميين، وكتب فهمي هويدي مقالًا بعنوان "طه حسين أوّابًا" يثني فيه على الكتاب وعلى تغيير موقف طه حسين، كما كتب الدكتور محمد عبد المطلب مقالًا نُشر في جريدة «الأهرام» يشيد أيضًا بكتاب د. عمارة، ويؤيده من خلال مرويات عن لسان د. مصطفى ناصف، مؤلف كتاب «طه حسين والتراث» الذي ذكر أن أحد الصحافيين سأل طه حسين: «ما الحدث أو الواقعة التي أسفت عليها أشد الأسف في مسيرتك الحياتية والثقافية؟»، فأجاب: «يوم أن ألقيت عمامتي في البحر».

أما الكتاب اليساريون وأشباههم فلم يرحبوا بصدور الكتاب، وقد أصدرت دار الهلال كتابًا بعنوان: «طه حسين.. لغو الصيف وجد الشتاء» للدكتور محمود الضبع، يُعدّ ردًّا على كتاب د. عمارة يؤكد أن طه حسين كان «حداثيًّا حقيقيًّا»؛ لأنه كان يدرك العلاقة بين الحاضر و«التراث»، وأن كتابات طه حسين تنتمي إلى الفكر المتحرر من الحدود الزمانية والمكانية والسياقات التاريخية (!).

وقال بعضهم: "إن ثمة «محاولة من قبل التيارات المتشددة (؟) لاختطاف طه حسين، وصبغه برداء إسلامي(؟)، ولعل المقال الأخير الذي كتبه فهمي هويدي يأتي في هذا السياق، والذي حمل عنوانًا صادمًا (طه حسين أوّابًا)(؟)... فهناك محاولة عبثية من قبل أنصار التيار الإسلامي لإهالة التراب على المنجز التنويري الذي صنعه المفكر الدكتور طه حسين، وتصويره على أنه قد تراجع عن آرائه التقدمية في ما بعد لصالح الإسلاميات(!!)"، وكأن الإسلاميات- أو الإسلام بالأحرى - شرٌّ وبيلٌ يجب التخلص منه وفقًا لإرادة اليساريين وأشباههم[1]..

(1) انظر: جريدة الشرق الأوسط، لندن، العدد١٣١٢٧، الخميس ١٣ محرم ١٤٣٦ هـ = ٦ نوفمبر ٢٠١٤م

تحطيم الالتزام الإسلامي

ويمكن القول إن الدفاع عن طه حسين وصورته شبه المقدسة من جانب اليساريين وأشباههم؛ ظل حتى يومنا هذا، وما زال، ليس حبًّا فيه - كما أرى - بقدر ما هو رغبة في تحطيم الالتزام الإسلامي والاستهانة به واستباحة قيم الشريعة الغراء، ثم التماهي مع الثقافة الغربية بشرها دون خيرها.

وعلى سبيل المثال فقد ظل رجاء النقاش يدافع عن الرجل حتى قبيل رحيله، ويلتمس كل مناسبة ليثبت أنه خلو من العيوب، وأنه فوق الانتقادات والقصور. ففي مقالة له بالأهرام أول مايو ٢٠٠٥ تحت عنوان: "هل قام طه حسين بتقبيل يد الملك فاروق؟" يعلن أنها وقفة أخيرة مع الاتهامات الموجهة إلى طه حسين من أعدائه والمختلفين معه والذين لا يثقون به ويعتبرونه مفكرًا مطعونًا في وطنيته، بل ومطعونًا في دينه وعقيدته. ويرى أنه يتحدث عن طه حسين الرمز الذي يمثّل هذه القبيلة من الذين يجاهدون على ساحة الآداب والفنون والأفكار ويتحملون في سبيل ذلك أهوالًا وصعوبات. كما يرى أن الدفاع الآن عن طه حسين لا يفيده في شيء، بل إنه يفيدنا نحن. فقد حقق طه حسين لنفسه مكانة رفيعة في عصره وبين أهله، والدفاع عنه دفاع عن كل الأحرار في كل مكان وفي أي محنة يتعرضون لها ويعانون منها. ولا يعني ذلك أنه أصبح في نظرنا من المقدسين، ثم يعترف رجاء النقاش أن طه حسين ليس قديسًا، وله مثلما لغيره أخطاء وهفوات، وأحيانًا سقطات، ولكنها كلها لا تمس طه حسين الذي ندافع عنه؛ لأنه هو الرمز الحي لكل مفكر يجاهد من أجل التقدم والنهضة وكرامة الإنسان(؟).

نموذج حيّ للتنازل

وينتقل رجاء إلى موقف طه حسين من الملك فاروق. إنه كما يقول: نموذج حي للتنازل من أجل مقابل عام له قيمته وأهميته. فالأستاذ أنور الجندي رحمة الله عليه، وهو رجل فاضل وعالم مجتهد، رغم اختلافنا معه واعتراضنا على

بعض أفكاره؛ أقول: إن أنور الجندي في كتابه عن "طه حسين.. حياته وفكره في ميزان الإسلام" يشير إلي أن طه حسين قام بتقبيل يد الملك فاروق بعد تعيينه وزيرًا للمعارف سنة١٩٥٠، ثم إن طه حسين خطب للملك فاروق ومدحه مدحًا شديدًا في مناسبات عديدة! وقد استدل أنور الجندي على حكاية تقبيل طه حسين ليد الملك فاروق بما شهد به اثنان من الشهود في محكمة الثورة التي تم تشكيلها في١٥ سبتمبر سنة١٩٥٣. ولكن أنور الجندي لم يذكر اسم الشاهدين، ولم أستطع أنا الوصول إلى الاسمين في حدود ما رجعت إليه من مصادر حول محكمة الثورة[1]..

ومن البداية فإن التهمة الملصقة بطه حسين لا يمكن أن يقبلها العقل، فقد كان طه حسين عندما تولى وزارة المعارف في١٢ يناير سنة١٩٥٠ في قمة شهرته ومكانته الأدبية والشعبية، ولم يكن تعيينه في وزارة المعارف يزيد من قدره أو يرفع من شأنه، بل العكس هو الصحيح، أي أن طه حسين كان هو الذي يرفع شأن الوزارة ويعطيها قيمة فوق قيمتها العادية. (هل الشهرة مقياس للصواب؟).

ولقد سمع طه حسين في حياته مثل هذه الاتهامات التي تتصل بموقفه من الملك فاروق، ولم يسكت طه حسين، ولكنه دافع عن نفسه بقوة وصدق. وفي مقال نشرته له مجلة روز اليوسف بتاريخ٢٩ مارس١٩٥٤ يقول طه حسين:

أي من المصريين يجهل أني كنت وزيرًا للمعارف في يوم من الأيام، وأني خطبت أمام فاروق في مواقف لم يكن بد من أن أخطب فيها حين وضع الحجر الأساسي لجامعة الإسكندرية ومعهد الصحراء. والناس جميعًا يعلمون أن الوزراء ما كانوا ليخطبوا أمام فاروق فيعيبوه ويذموه ويدلوا على ما كان يتورط فيه من

(1) تحدث طه حسين عن الشاهدين دون أن يذكر اسميهما وهو يدافع عن نفسه في النص الذي أورده رجاء النقاش فيما يلي من مقاله

طغيان وما كان يقترف من آثام، وإنما جرت عادة الوزراء حين يتحدثون إلى الملوك أن يتحدثوا بشيء غير هذا.

الجوع والصمت

ثم يقول طه حسين بعد ذلك: أنا لم أكسب لنفسي من فاروق مالًا ولا جاهًا، فقد كنت غنيًّا عن ماله وجاهه، وإنما كسبت لمصر ما نفع أهلها في حياتهم الداخلية فأباح لهم التعليم ويسر لهم أموره، وما نفع مصر في العالم الخارجي فأنشأ لها معهدًا في مدريد، وكرسيًّا لثقافة البحر المتوسط في نيس وكرسيًّا للغة العربية في جامعة أثينا.

ثم يقول طه حسين مخاطبًا رئيس تحرير روز اليوسف ومخاطبًا كل مواطن آخر. وإنك لتذكر أن أباه الملك فؤاد أخرجني من الجامعة سنة١٩٣٢ وأراد أن يضطرني إلى الجوع فلم يفلح، وأراد أن يضطرني إلى الصمت فلم يفلح أيضًا. وإنك لتذكر أن فاروقَ أخرجني من وزارة المعارف حين أنزل حكومة الوفد عن السلطان سنة أربع وأربعين(١٩٤٤)، وأراد أن يضطرني إلى الجوع والصمت فلم يبلغ إلى ما أراد شيئًا؛ لأن الله هو الذي يرزق الناس على رغم الملوك والحكام؛ ولأن الله هو الذي يمنح الناس من صدق العزم وقوة الإرادة ما يمكنهم من أن يثبتوا للخطوب ويخرجوا من الكوارث والنائبات مهما يبلغ بها التعقيد. وهناك أشياء لا تعلمها أنت ولا يعلمها الناس، وإنما يعرفها أفراد قليلون منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال حيًّا أرجو له طول البقاء. أنت لا تعلم أن فاروقَ أرسل إليّ الرسل بالمغريات سنة خمس وأربعين١٩٤٥ فلم يجد إلى إغرائي سبيلًا، وإنما رددت رسله ردًّا رفيقًا كريمًا فيه كثير من ارتفاع عن الصغائر، ولو شئت لبلغت من فاروق وسلطانه وماله وجاهه ما أردت، ولكني لم أرد، لأني رأيت الكرامة والوفاء والصدق في خدمة الوطن أغلى من المال والجاه والسلطان.

تقبيل يد الملك

ثم يتحدث طه حسين عن حكاية تقبيل يد الملك فاروق فيقول: والشيء بالشيء يذكر، فقد شهد شاهدان أمام محكمة الثورة بأني قمت مع غيري من الوزراء بتقبيل يد فاروق، والله يشهد ما قبلت يد فاروق ولا يد أبيه ولا يد عمه السلطان حسين ولا يد ابن عمه عباس حلمي الثاني حين كان أميرًا لمصر، ولا يد ملك من الملوك الذين لقيتهم قط، والله يشهد أنني ما قمت بتقبيل يد أحد من الناس إلا أن تكون يد أبوي أو يد بعض شيوخنا في الأزهر رحمهم الله، لا أستثني يد سيدة أجنبية كانت ترفع يدها إذا لقيتني في بعض المحافل فتلصقها بشفتي إلصاقًا.. وأضحك من ذلك إن شئت، وأعبث به إن أحببت، فليس عليك في الضحك والعبث جناح".

ثم يختم رجاء مقاله بالقول:

هذا بعض ما قاله طه حسين في الدفاع عن نفسه. فهل لديك مانع من تصديقه والثقة بأن ما يقوله هو الحقيقة؟.. أنا شخصيًّا أصدق طه حسين، وأرى أنه كان في أدبه وحياته كلها من الكبار، وكان من أصحاب الكرامة والكبرياء، وهؤلاء لا يكذبون، ولا يتقبلون الكذب من أحد.

سؤال وإجابة

وقد يكون رجاء النقاش على صواب في بعض النقاط أو لا يكون، وهناك غيره من دافعوا عن طه حسين دفاعًا مستميتًا وأيدوا آراءه المثيرة وأفكاره الخاطئة وخاصة ما جاء بكتابه "في الشعر الجاهلي" وعلاقته بالصهيونية، فضلًا عمّن رأوا أنه تراجع عن آرائه وغيّر من أفكاره وخاصة ما يتعلق بالإسلام. فما هو موقف أنور الجندي من كل هذا؟

لقد رد على التعقيبات التي ظهرت بعد صدور كتابه كما سبقت الإشارة، وراح يجيب عن السؤال:

هل غيَّر طه حسين آراءه في السنوات الأخيرة من حياته؟

لقد أجاب عن هذا السؤال وكرر الإجابة في أكثر من كتاب من كتبه، وربما كانت الإجابة المفصلة هي التي حملتها إحدى رسائله، وأهم ما جاء فيها:

إن الدفاع عن طه حسين من بعض عارفيه ومريديه وكل من كان له عليهم فضل أو لهم به صلة، هو من حقهم.. ولكن المعادلة الصعبة هي أن المسئولية الأخلاقية أمام الأجيال هي أكبر بكثير من العاطفة الفردية والهوى الشخصي.

إن هؤلاء القوم ما كادوا يرون هذه الصورة التي كشفت حقيقة طه حسين تنشر على الناس حتى بادروا إلى الدفاع عنه بالقول:

- لقد غيَّر الدكتور طه حسين آراءه في آخر حياته.
- لقد تراجع الدكتور طه حسين عن أخطر آرائه.

والقصة تسمعها من الكثيرين.. ولكن هل هي صحيحة حقًّا؟

خداع ومكر

الواقع أن هناك ما يمكن أن يقوله هؤلاء: أن الدكتور طه كتب "على هامش السيرة" وبه كفّر عن "الشعر الجاهلي"، وكتب كتابه "الشيخان" عن أبي بكر وعمر.. وبه كفّر عن "مستقبل الثقافة".

وذلك كله خداع وباطل.. فإن الدكتور طه لم يغير من آرائه مطلقًا؛ لأنه كما يقول الدكتور محمد نجيب البهبيتي: كان له حارس وديدبان يحول بينه وبين ذلك (يقصد زوجه الفرنسية).. هذا الحارس مقيم في بيته يلفت نظره دائمًا إلى الخط المتفق عليه. ولكن الدكتور طه حسين غيّر أساليبه ووسائله في سبيل أن يصل إلى قلب القارئ المسلم. وبعد أن كانت أساليبه هي الهجوم على الإسلام أصبحت

تقوم على ترضّي الإسلام داخليًّا ودسّ السم على مراحل خلال البحث، ولا يقل السمّ المدسوس في كتاب "الشيخان" عن السم المدسوس في "هامش السيرة" أو في "الشعر الجاهلي" ولكن القوم لا يعلمون وسائل إخفاء الشبهات.

إن الذي يتردد على الألسنة هو: أن كثيرًا من أصدقاء طه حسين واجهوه برأيهم في "الشعر الجاهلي" أو "هامش السيرة" أو "مستقبل الثقافة" فقال لهم: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كتبت الشعر الجاهلي" أو قوله: "اكتم عني" أو قوله للسفير المسلم أحمد رمزي عن كتاب مستقبل الثقافة: "إنني متفق معك على أن في الكتاب أخطاء كثيرة".

ذلك هو أسلوب طه حسين المرن الماكر الخادع الذي لا يواجه بالمعارضة أو الهجوم، ولكنه يلين حيث يرى أن صاحبه واع لسمومه، فإذا وجد من يجهل لم يمتنع عن خداعه. وقصته مع اللواء محمود شيت خطاب معروفة. فقد قال في آخر أيامه أن القرآن كان غير منقوط فكان يُقرأ على قراءات مختلفة ففي آية: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" كانت تقرأ فتثبتوا" فردَّه محمود شيت خطاب وقال له: هذا كلام أعداء الإسلام.

أدلة كثيرة

أما القول بالتراجع فإن هناك من الأدلة الكثير الذي يكذبه:

أولاً: أن أسلوب التراجع معروف، وهو أن يعلن الكاتب أنه كان يقول بكذا ثم تبين له سوى ذلك، وأن يوقف على الفور ما له من مؤلفات في هذا الصدد.

ثانيًا: أن يعلن أنه اتخذ هذا الأسلوب كوسيلة للعمل ثم تبين له أنه لا ينتج وأنه تحول عنه.

ومثل الحالة الأولى الإمام الأشعري، ومثل الحالة الثانية الدكتور محمد حسين هيكل.

فهل تراجع طه حسين حقًّا عن رأي من آرائه وهو حي، وأعلن ذلك. ذلك ما لم يحدث. وهل يكفي أن يتراجع طه حسين عن رأي أو آخر في مساره خاصة مع صديق، دون أن يوقف هذا الرأي عن الذيوع والانتشار؟! إن ذلك لا يكفي، بل إن هذا يؤكد إصرار الدكتور طه على الرأي وحرصه على أن يذيعه في الناس فيفسد به مزيدًا من العقول والقلوب. ولقد أشار كثيرون إلى وقائع الدكتور أحمد الحوفي والسيد محمد بهجت الأثري، وسعيد الأفغاني، ولكن هل توقف طه حسين عن آرائه، هل حدَّث تلاميذه بشيء من هذا التراجع، إن ذلك الأمر ظل قاصرًا على مسمع عدد قليل من أصدقائه.

هذا شيء. وهناك شيء آخر، أن بعض مقالات الدكتور طه التي نشرها في أول الشباب وفيها آراؤه الجارحة قد عاد فجمعها في مؤلفات صدرت في آخر حياته. وهذا يعني إصراره على تلك الآراء وأنه لم يتنازل عنها.

مؤامرة فاشلة

أما القول بأن كتبه "على هامش السيرة" أو "الفتنة الكبرى" أو "الشيخان" هي تراجع عن آرائه السابقة وتحول إلى الإسلام؛ فذلك قول ساذج، وقد فندنا ذلك في كتابنا عن طه حسين. ونضيف بأنه كانت هناك مؤامرة وفشلت. هذه المؤامرة كانت ترمي إلى تنصيب الدكتور طه (إمامًا للإسلام) وقد غضب القوم عندما هاجم الإسلام بعنف في المرحلة الأولى، وطلبوا إليه أن يدخل الإسلام من باب آخر حتى يمكن أن تكون آراؤه حجة على المسلمين من بعد في فتوى ضالة على النحو الذي حاول أن يتحدث به في مؤتمر الحوار بين الإسلام والمسيحية، وهو حوار مشبوه، ولكن آراء طه حسين التي قدمها في هذا المؤتمر لم تلبث أن أصبحت حجة من بعد ووصفت بأنها مبادرة طيبة ومقدمة لما قام به البعض بعد ذلك في طريق محفوف بالمخاطر والشبهات.

وكانت الخطة أن يعود طه حسين إلى الإسلام في ضجة ضخمة، واختاروا لها وسيلة وخطة:

أما الوسيلة فهي كتابه "على هامش السيرة"، أما الخطة فهي الانضواء تحت لواء حزب الأغلبية (الوفد) لتكون قدرة طه ونفوذه أقوى في تحقيق الأهداف المرسومة. ولقد خدع كتاب هامش السيرة كثيرين وظنوا أنها دعوة حارة إلى الدين، وخفي عليهم جانب السخرية والتهكم الواضح فيه، والذي كشفه الرافعي منذ اللحظة الأولى.

أما "الفتنة الكبرى" فإنه محاولة جريئة لتبرئة اليهود من فتنة (عبد الله بن سبأ) وهي فتنة جذور عميقة في تاريخ الإسلام، فأراد طه حسين أن يخدم اليهودية العالمية بعمل آخر مضاف إلى قولته في إبراهيم وإسماعيل، وفي كتابته عن قضية اليهود في ألمانيا وأوروبا، ويتصل ذلك بإصدار مجلة الكاتب المصري ومحاضراته في الدور الإسرائيلية في القاهرة والإسكندرية.

وهناك الوثيقة التي تدحض كل الشبهات وهي حديثه مع مجلة الاثنين التي كانت تصدرها دار الهلال. والاتهام موجه فيها صراحة إلى الدكتور.

وإذا كانت هناك محاولة لتبرئة الدكتور من آرائه القديمة فإننا نقبل بأي نص صحيح يكون فيه الدكتور طه قد تراجع عن رأي من هذه الآراء الخطيرة التي قدمها خلال حياته ومن خلال كتبه وآثاره.

وفي هذا رد على محاولة البعض بالقول بأن طه حسين صحيح العقيدة.

وهذه هي الوثائق:

رأيه في الدين:

١ - إن الدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء ويأخذ الناس بالإيمان بهما يثبت أمرين لم يستطع العلم أن يثبتهما. فالعلم لم يصل بعد إلى إثبات وجود الله ولم يصل بعد إلى إثبات نبوة الأنبياء.

٢ - إن العلم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة في تطورها بما تتأثر به الجماعة.

إذًا فالدين في نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر، لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

"وهذه آراء الفيلسوف اليهودي دور كايم".

رأيه في القرآن:

لاشك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب ديني آخر يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة.. فمثلًا نرى القسم المكي فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد أن القسم المدني اليثربي تلوح عليه إمارات الثقافة والاستنارة. وإذا دققتم النظر وجدتم القسم المكي ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد، ويمتاز كذلك بتقطيع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر الآيات والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخرًا وانحطاطًا، أما القسم المدني فهو وديع لين مسالم يقابل السوء

بالحسنى ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات، ولاشك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن.

"وهذه آراء الفيلسوف اليهودي جولدزيهر".

رأيه في الرسول ﷺ:

ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه من قريش، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم، وأن تكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بني قصي، وأن تكون قصي صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة الإنسانية.

"وهذه آراء الفيلسوف اليهودي مرجليوث".

هذه هي آراء طه حسين موجزة في الإسلام والقرآن والنبي، فهل غيَّرها؟".

الواقع أنه ليس هناك دليل من كتاباته الأخيرة أو آثاره من نص يمكن أن يدل على تغير هذه النظرة، بل إن كل الكتابات توحي بأنها أساس لفكرته عن الإسلام ومفهومه له[1]..

(1) انظر: أنور الجندي، هل غيَّر الدكتور طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة. في دائرة الضوء – رسالة (٥)، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، ص ٢٤٧ وما بعدها، محاكمة فكر طه حسين، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٦٨ – ٢٧٦

زلزال كبير

ومن المؤكد أن أنور الجندي أثار بكتاباته عن طه حسين زلزالًا كبيرًا في الحياة الثقافية العربية، وكان لهذا الزلزال صداه في كثير من النفوس والمواقع؛ لأنه حرر الثقافة من فكرة عبادة الرموز وتقديسها، وفتح المجال أمام قراءة الشخصيات القائمة في الحياة الأدبية قراءة علمية تنزع عنها هالة القداسة وتخضعها للمراجعة والتقويم على ضوء النقد الجاد والأسس الموضوعية.

لقد اجتهد أنور الجندي في قراءة طه حسين وجمع كثيرًا من الوثائق والشواهد التي تعزز كثيرًا مما ذهب إليه بشأن الرجل، وخاصة ما يرتبط بعلاقته بالعقيدة والهوية، وإذا أضفنا إلى ذلك تقويمه لكثير من الكتاب والأدباء الذين تصدروا المشهد الثقافي في العصر الحديث عبر عشرات الكتب والرسائل التي أصدرها، فإنه يكون قد أسهم إسهامًا كبيرًا في خلق حالة من التوازن الفكري أمام شبه التقديس أو الإحاطة بهالة من التقدير لرموز التغريب تحجبهم عن التناول الموضوعي والعلمي. فهم في كل الأحوال بشر يصيبون ويخطئون، وقد يتراجع بعضهم عن خطئه أو يتمادى فيه، وهنا يكون التناول القائم على الوثائق والأسس العلمية أمرًا لا مفر منه يفيد الحقل الثقافي، ويجعل الأجيال الجديدة على بينة من طبيعة الرموز التي تتلقى عنها أو تعجب بها.

يمكن القول إنه قد تم تحرير الواقع الثقافي من الخضوع لرموز شبه مقدسة أو أصنام يراد من الناس عبادتها من دون الله. وذلك بفضل الجهد المخلص الذي بذله أنور الجندي وتحمل في سبيله التهميش والإقصاء والأذى!

***

رابعًا: تصحيح المفاهيم

خطوة أساسية

انشغل أنور الجندي في معظم كتاباته بتصحيح المفاهيم التي شوّهها المغرضون، والأحداث التي زيفها أعداء الإسلام وخصومه، سواء كانت هذه المفاهيم والأحداث عقدية أو فكرية أو شخصية أو ثقافية بوجه عام.

وقد عرضنا في الفصل الثاني بإيجاز لكتاب أنور الجندي "تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة"، وتناول فيه المفاهيم الصحيحة والمفاهيم الخاطئة، مما يدل على اهتمام الرجل بموضوع المفاهيم في حركة الفكر بصفة عامة، وحركة الإسلام والدعوة إليه بصفة خاصة.

تصحيح المفاهيم والوقائع خطوة أساسية في نهضة الأمة وبناء المستقبل، وشيوع المفاهيم الخاطئة والأحداث المزيفة يقود إلى صراعات ومتاعب تستنزف كثيرًا من الجهود والإمكانات والوقت، وتحسب سلبًا بالخصم من رصيد الأمة وثرواتها المادية والمعنوية.

ولا ريب أن الأمة شهدت منذ مطالع النهضة الحديثة كثيرًا من المتاعب والآلام بسبب المفاهيم الخاطئة والأحداث الزائفة التي أشاعها أعداء الأمة وأبناؤها الجاهلون بدينها وعقيدتها وتراثها.

ولا ريب أن معظم المفاهيم الخاطئة كانت نتيجة لعملية التغريب التي جاءت على قدم وساق بفعل الهيمنة الاستعمارية على الأوطان الإسلامية وخاصة مصر

التي تعد قلب الأمة وعقل الإسلام، وحققت وجودًا ملحوظًا في التعليم والثقافة والصحافة والإعلام والأدب وغير ذلك من عناصر تخاطب العقل والوجدان، وكان الترويج للعلمانية من أخطر هذه المفاهيم كما جاء في فصل سابق من هذا الكتاب؛ حيث يتم الفصل بين الإسلام والمجتمع أو الدين والدولة أو إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين وتفكيرهم وسلوكهم، مما يخلق بيئة حاضنة لنمو المفاهيم الخاطئة حول الإسلام والتفكير العلمي والعلاقة بين المسلم وماضيه وحاضره ومستقبله.

الغاية المستقيمة

وفي هذا الإطار يبدو التدليس أو التضليل واضحًا في طرح بعض المفاهيم لغير ما وضعت له أو استغلالها لتحويل وجهة المسلم عن الغاية المستقيمة.

يقول أنور الجندي مبينًا كيف تستغل قيم الإسلام في تسويغ إحلال القيم الغربية محل القيم الإسلامية:

"إن أخطر المحاولات التي تحتاج إلى الانتباه الوافر: هي محاولة وضع الإنسان في موضع تبرير القيم الغربية باسم سماحة الإسلام وانفتاحه وقابليته للجديد ومسايرته لظروف الأمم والحضارات، ولا ريب أن للإسلام قواعد كلية لا سبيل إلى النزول عنها وخاصة في مسائل الربا والحدود وعلاقة الرجل والمرأة وعلاقة الأسرة بالمجتمع، كذلك فللإسلام أصول ثابتة في المعاملات. كل ذلك ليس موضع التبرير أو التأويل؛ لأنه هو الدعامة الصحيحة للمجتمع الإسلامي، أما فيما عدا ذلك فإن هناك محاولات للاجتهاد، هذا فضلًا عن سعة الأطر ومرونتها التي تجعلها كفيلة بالصلاحية لكل البيئات والعصور"[1]..

(1) أنور الجندي، تصحيح المفاهيم الإسلامية، سلسة في دائرة الضوء، رقم ١٣، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ١٥

ثغرة خطيرة

إن استغلال سماحة الإسلام للإساءة إلى الإسلام ثغرة خطيرة استغلها التغريب للنفاذ إلى القيم والمعتقدات الإسلامية، وكانت أكبر عوامل التزييف على الساحة الفكرية تتمثل في عرض القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من خلال وجهة نظر رأسمالية أو ماركسية أو اشتراكية غربية، مع تجاهل شديد، وتآمر صامت على وجهة النظر الإسلامية الأصيلة التي تنتمي إلى الأمة وقيمها وتراثها ومجتمعها.

ففي الجامعات مثلًا تدرس القضايا الاقتصادية والسياسية وعلوم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والأدب من خلال الرأسمالية أو الماركسية أو النظريات الوافدة عمومًا، تلك التي جاءتنا مع النفوذ الغربي، دون أن تجد صدى في دراستها للمفاهيم الإسلامية التي أقامت حضارة باذخة امتدت على مدى خمسة عشر قرنًا في المجالات الإنسانية كافة، وعلى أساسها قامت الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة.

إن أتباع الماركسية وأشباههم يهيمنون اليوم على المؤتمرات والندوات التي تتعرض لما يسمى "التراث والفكر السياسي" لينشروا مفاهيمهم المسمومة ويتعرضوا للإسلام في استهانة واضحة.

إقصاء وجهة النظر الإسلامية

لقد صارت الهيمنة العلمانية على وسائط التعبير والنشر شبه كاملة، ومن خلال هذه الهيمنة يتم إقصاء وجهة النظر الإسلامية بكل خشونة ووحشية، تحت دعاوى أن أصحابها يوصفون بالتطرف أو الإرهاب أو التخلف أو الظلامية ونحوها. ويحاولون تجميل موقفهم المنحرف والمعادي للحرية وهوية الأمة الإسلامية بالحديث عن العروبة والوطنية والتقدمية والتنوير وغيرها، مع السخرية من القيم الإسلامية ومحاولة تحطيمها.

وإلى جانب ذلك يتم الترويج لدراسات تزيّف التاريخ بهدف إلغاء الدور الإسلامي للعرب وغيرهم، وعلى سبيل المثال تذاع من المحطات المعادية عروضٌ لكتاب صبحي وحيدة (في أصول المسألة المصرية)، في محاولة لإعطاء مصر دورًا متميزًا في مواجهة التتار ووصف هذا الجهد بأنه في سبيل العرب. وذلك ليس صحيحًا لأن مصر كانت تدافع عن المنطقة باسم الإسلام وليس لحساب العرب، ثم إن الذين قادوا الجهاد ضد التتار لم يكونوا من العرب أساسًا، بل كانوا مسلمين ويتحركون بمنهج الإسلام وبدافع منه. إنها محاولة خلق المغالطة، التي تقوم على التدليس والتضليل لإبعاد الإسلام عن مركز الحركة والتصور.

مؤسسات خطيرة

ويرى أنور الجندي أن هناك أربع مؤسسات خطيرة استحوذ عليها النفوذ الأجنبي من أجل تغريب الفكر الإسلامي وإثارة الشبهات حوله وضرب الأمة الإسلامية في مقاتلها وتشويه خطواتها نحو تحرير وجهتها وامتلاك إرادتها. وهذه المؤسسات هي:

١ – الاستشراق: المؤسسة الصانعة لكل السموم والشبهات.

٢ – المدرسة عن طريق التعليم.

٣ – المدرسة الموازية عن طريق وسائل الاتصال والتسلية.

٤ – الصحافة بسمومها المبثوثة يوميًّا في الخبر والقصة والصورة[1]..

مفاهيم خاطئة

وهناك مجموعة من المحاذير أو المفاهيم الخاطئة التي يحذر منها أنور الجندي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: الدعوة إلى نبذ الماضي والتاريخ والتراث تحت لافتة نبذ "القديم". وهذه الدعوة الغامضة محاولة لهدم الإسلام، في الوقت الذي يدعون فيها إلى إحياء الماضي الوثني والجاهلي السابق على الإسلام الذي تلاشى تمامًا.

(1) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ١٢٢ وما بعدها

ثانيًا: مهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر العربي، وإحياء العاميات في عملية استهداف للبيان القرآني لينفصل المسلمون عن القرآن وفهمه.

ثالثًا: مفهوم البطولة الإسلامية لا يستمد من نظريات لامبروزو أو فرويد أو إميل لودفيج، ولكن وجوده الحقيقي يأتي من أثر العقيدة الإسلامية التي تربي عليها الأبطال، وتقدير البطولة يرتبط بالعمل الصالح والجهاد المشروع، وليس الحرب من أجل امرأة كما في إلياذة هوميروس على سبيل المثال. إنها بطولة تخليد الأعمال وليس تقديس الأشخاص.

رابعًا: الصراع بين العلم والدين لا وجود له في الإسلام، ولكنه في معتقدات أخرى، وتاريخنا الإسلامي لم يعرف مثل هذا الصراع.

خامسًا: نشر العلوم والثقافات ليس بديلًا عن التربية والتهذيب الخلقي كما يروِّج بعضهم، فالعلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولكي يتحقق استخدامه استخدامًا صحيحًا فلا بد أن يتم ذلك في إطار الأخلاق ومن أجل الخير العام وعمارة الأرض وتقوى الله.

سادسًا: لا يجوز فصل الفكر العربي المعاصر ولا الأدب العربي المعاصر عن الدين والتراث والتاريخ والأصول والجذور. فالفكر الغربي المعاصر لم ينفصل عن جذوره اليونانية والهلينية والمسيحية الغربية. والفكر الغربي يعلن أنه لا يفهم فهمًا صحيحًا إلا إذا فهمت الإغريقية واللاتينية.

سابعًا: القول بأن كل دين قابل للتطور وملاءمة العصور لا ينطبق على الإسلام؛ لأن الفكر البشري وحده هو الذي يتطور ويطوره أهله ليوافق العصور والأزمان. أما الدين الإلهي فقد أقامه الخالق جل وعلا في إحكام وتقدير، وجعله قادرًا على مواجهة المجتمعات والعصور، وفيه سعة ومرونة قابلة للحركة والتجدد. والشرائع والأخلاق الإسلامية ثابتة وليست نسبية.

ثامنًا: فرّق الإسلام بين الأخلاق من ناحية، والتقاليد والعادات من ناحية أخرى. الأخلاق هي القيم التي رسمها الإسلام وهي راسخة لا تتحول ولا تتغير (الخير والشر والحق والباطل)، أما العادات والتقاليد فهي من صناعة المجتمع، ويحاول الغزاة رفعها إلى مكان القداسة لتطغى على الأخلاق والقيم الإسلامية.

تاسعًا: الموت ليس نهاية الحياة كما يزعم بعضهم، وهذا الزعم مريب ويثير الشك في النفس، فكيف ينتهي العالم دون أن يفصل في أمره أو تكشف حقائقه؟ إن مفهوم المسئولية الفردية يترتب عليه الحساب والجزاء، ومن ثم فإقرار البعث والحياة الحياة الآخرة مطابق للفطرة، ولا يشكل تناقضًا عقليًّا "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون: ١١٥).

ولا يقلل كون الحياة معْبرًا إلى الآخرة من هدف بنائها وتحسينها وجعلها أكثر أصالة وعمقًا، في إطار الاتجاه إلى الله وتقدير المسئولية الفردية والرضا بقضاء الله في النتائج.

عاشرًا: ليس الوحي انطباعًا في نفس النبي محمد- ﷺ- فهناك فارق عميق وواضح بين نظم القرآن وكلام النبي، ولنحذر خطأ القول إن القرآن فيض العقل الباطن وليس وحيًّا إلهيًّا حتى ليقول بعضهم: أليس الأفضل الإشادة بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه بنسبة القرآن إليه، كلا، ولا داعي لهذه الإشادة الزائفة، فإن الله تبارك وتعالى قد أشاد بما لا تستطيع البشرية كلها أن تقوله حين أعلن أنه عبده ورسوله، وأنه بشر يوحى إليه.

حادي عشر: تمثل دعوى أن كل إنسان حر، يرفض النصيحة أو وجهة النظر الأخرى أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ خطرًا كبيرًا يحطم الرابطة الأصيلة بين الأجيال ويشعل الصراع بينها ويدفع الأجيال الجديدة إلى التمرد على القيم

الأساسية للمجتمعات. فالدعوة لا تكون إلى متابعة الناس بقدر ما تكون إلى التماس مفاهيم الدين الحق والأخلاق الثابتة. إن الشباب وهو يحمل أمانة الغد يجب أن يُبنى على الأساس الصالح، ويتحرز من أخطاء السابقين، ويستمد التجربة والمثل الأعلى والأسوة الحسنة من النموذج الأكبر: محمد - ﷺ- قدوة الأجيال والأمم.

ثاني عشر: تعد دعوى الكبت التي يروِّج لها فرويد متعارضة مع فكرة المجاهدة في المفهوم الإسلامي وخطرًا كبيرًا. فالكبت يقوم على إنكار الرغبات واحتقارها وعدم الاعتراف بها، بينما يعترف الإسلام بالرغبات النفسية والحسية والجنسية اعترافًا كاملًا. ولكنه ينظمها، ويؤخرها عن طريق المجاهدة حتى تتوفر لها الإمكانات المادية التي تحققها.

الكبت يؤدي إلى العصاب بسبب الإنكار والاحتقار، أما الاعتراف مع التأجيل مؤقتًا فذلك مما تقبله الطبيعة البشرية وترضاه. وقد أثبتت التجارب أن النفس الإنسانية قابلة للتوجيه والتحذير والعقوبة دون أن يحدث لها ما يسمى بمركبات النقص أو غيرها.

إن خالق النفس البشرية قادر على حمايتها وحفظها بما يضع لها من تعاليم ومفاهيم، وهي ليست شاقة أو عسيرة أو مضرة كما تبالغ الفلسفات الأرضية التي تسعى إلى تخريب المجتمعات وتفكيكها قبل السيطرة عليها.

ثالث عشر: لا ريب أن الدعوات الصهيونية العالمية إلى الجنس وعدم الخجل من الأعضاء التناسلية تنذر بخطر عظيم. فقد هاجمت الصهيونية التلمودية الآداب الدينية المسيحية وفرضت العلمانية حتى يتعلم الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال، ونقل هذا إلى مجتمعاتنا الإسلامية يهدم صلابة الشباب الذي يحمل أمانة الغد وإسقاط الأسرة التي هي ركيزة الأساسية للمجتمع[1]..

(1) أنور الجندي، تصحيح المفاهيم الإسلامية، ص ١٦ - ٢٢

معلمة الإسلام

لقد أنشأ أنور الجندي معلمة الإسلام لتصب في نهر تصحيح المفاهيم، والمعلمة أو المعجم أو دائرة المعارف تضم مجموعة من المصطلحات أو المواد المراد تعريف القراء بها في طبيعتها الحقيقية وصورتها الصادقة، وقد جاءت معلمة أنور الجندي لتربط بين الأصالة والمعاصرة في ضوء الإسلام من خلال ٩٩ مادة أو مصطلحًا في مختلف أبواب الشريعة والأخلاق والتربية والاجتماع والاقتصاد والنفس والثقافة والحضارة والعلم والفن والتاريخ واللغة والسياسة والفلسفة ومقارنة الأديان، ومن هذه المواد الإسلام والتوحيد والنبوة والقرآن والدين والإنسان (روح وجسد) والإنسان (إرادة وحرية) والإنسان (عقل وقلب) والإنسان (حياة وموت) والنفس وعلم النفس (الفرويدية) والجنس، الوجودية والأخلاق والشباب والمرأة والتربية والتعليم والثقافة والأدب واللغة والعلم (في الإسلام) والعلم (في الغرب) والنظرية المادية ونظرية التطور والفلسفة ومنهج المعرفة والثوابت والمتغيرات والتراث والأصالة والتكامل والانشطارية والأمة الإسلامية ووحدة البشرية...الخ.

وحدة البشرية

وإذا قرأنا على سبيل المثال المقصود بوحدة البشرية نجده يشير إلى إعلان الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان عن وحدة البشرية، وأن الناس أمة واحدة في الأصل ثم اختلفوا " وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا "(يونس ١٩) وأن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة، وأصبحوا شعوبًا وقبائل، وليس هناك فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى.

ومن شأن هذه الوحدة أن تدفعهم إلى الإخاء الإنساني والوحدة العالمية والترابط والتكامل، كما قرر الإسلام وحدة الدين الذي جاء به الأنبياء منذ نوح

عليه السلام (الصواب منذ آدم عليه السلام) حتى محمد - ﷺ- فهو رسالة واحدة هي التوحيد وشرعة واحدة.. ويستمر الجندي في تفصيل وحدة البشرية من خلال وحدة النفس البشرية الأولى، والمساواة بين الأجناس، وإلغاء نظام الطبقات، وإقرار مبدأ الكرامة الإنسانية لكل الناس، فلا يستعبد إنسان غيره بسبب اللون أو الحسب أو القوة، وتكريم الجنس البشري عامة على أساس عدم التفرقة في المعاملة بين جنس وجنس أو طبقة وأخرى، والدعوة إلى العدل في المحبة والبغض وفي القريب والغريب وإعلاء رابطة الدين على رابطة القرابة والوطنية.

ويعالج فكرة العنصرية التي تبناها الغرب بالنظر إلى العلم البيولوجي أو الوراثة البيولوجية، وما تحمله من استعلاء وتمييز وخاصة ما جاء في كتاب مونتسيكو المسمى (روح القوانين) الذي وصف الزنوج والأفارقة بأنهم ليس لهم روح، ويدعي أن الله سبحانه لا يمكن أن يكون قد خلق روحًا طيبة في أجسام حالكة السواد، بينما يقول المقريزي العالم المسلم: إن البشرة السوداء لا تقلل شرف النفس الطاهرة، ولا تنتقص من علم العالم ولا سمو المفكر.

التفرقة العنصرية

ويذكر أن اليهود هم الذين أعادوا الدعوة إلى التفرقة العنصرية والاستعلاء بعد السبي البابلي ثم حملت أوروبة لواء هذه الدعوة، وقد ظلت زمنًا طويلًا، وبالاستعمار أصبحت العنصرية قاعدة حملت لواء تجارة الرقيق على نحو مهين للجنس البشري. كما يذكر تفاصيل كثيرة تتعلق بجريمة التمييز العنصري التي ارتكبتها أوروبا وأميركا حتى يومنا مما يرفضه الإسلام ويتنافى مع وحدة البشرية التي أقرها قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. ويفصل نظرية (الإنسان الأبيض) وامتيازه عن الأجناس الملونة، وهي النظرية التي اتخذها النفوذ الأجنبي مسوّغًا لوجوده وسيطرته في بلاد الآخرين.

وينتقل إلى الحديث عن الأخوة العالمية بوصفها أعظم ما جاء به الإسلام في سياق وحدة البشرية، ولا يستطيع باحث أو مدع أن يزعم إنكارها. فقد أشار الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا إلى وحدة البشرية- كما سبقت الإشارة - (كان الناس أمة واحدة)، ثم التطور إلى أجناس (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وتمام ذلك عن طريق التناسل (فأنبتنا فيها من كل زوج كريم)، وقد ثبت أن النوع البشري قد امتزج امتزاجًا شديدًا نتيجة هجرات واسعة مستمرة لم تتوقف على مدى العصور.

البيض والسود تحت راية الإسلام

لقد تحرر المسلمون البيض من عقدة التمييز اللوني حتى قال آرنولد توينبي:

(ولقد اتصل المسلمون البيض مع الزنوج والأفارقة ومع الشعوب الداكنة اللون في الهند واستمروا في تعزيز ذلك الاتصال. وحتى اليوم فإن البيض والسود يندمجون تحت راية الإسلام عبر القارة الإفريقية والهندية طولًا وعرضًا.

ويعرض نماذج أخرى عن تحرر المسلمين من عقدة اللون والشعور العنصري، فقد زوجوا بناتهم بالمسلمين السود، وصور مالكولم إكس الأميركي الأسود الشهير، هذا الامتزاج بقوله:

" لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل الأقطار، كانوا من شتى الألوان زرق العيون إلى الأفارقة السود، ولكنا جميعًا كنا نشارك في الشعائر ذاتها مبدين روح الوحدة والأخوة التي ساقتني تجاربي في أميركا إلى اعتقاد أنها لا يمكن أن توجد بين البيض وغير البيض.

ويفصل ملامح التسامح والمساواة في الإسلام بين أصحاب الألوان والأعراق، مستشهدًا بما ذكره التاريخ الإسلامي وما قاله كبار المفكرين والمستشرقين في العالم، من ذلك ما ذكره المستشرق عبد الكريم جرمانوس:

"إن أوروبة لم تعرف فكرة الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية، بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ذلك بنحو ألف عام. لقد كانت فكرة الشورى من ابتكار القرآن عرفتها أوروبة في القرن السابع عشر، بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته[1]..

التسامح والمساواة

ونلاحظ هنا أن التعريف بوحدة البشرية يكشف عن جوهر نظرة الإسلام إلى البشر في إطار الأخوة الإنسانية، ويصحح المفاهيم المغلوطة عن دين الإسلام، فيجلي طبيعة التسامح والمساواة والنظر إلى الأعمال والأفعال، وليس الأشكال والأموال، ومن ثم تبدو صورة المصطلح ناصعة وساطعة ترد على المتعصبين ضد الإسلام أو الذين يعادونه بدوافع غير خلقية أو مقبولة، وأيضًا ترد على الجاهلين به أو يرددون ما يقوله المتعصبون والمتحاملون.

ويُضاف إلى المعلمة كثيرٌ مما كتبه أنور الجندي دفاعًا عن الإسلام ومفاهيمه في عشرات من كتبه، ومنها ما كتبه في سلسلة في دائرة الضوء، وهي تشبه المعلمة في موادها أو مصطلحاتها أو موادها. وكان ينشرها في رسائل قصيرة من القطع المتوسط وتبلغ صفحاتها عادة قدر ملزمتين (٣٢ صفحة)، يستهدف بها الشباب بالدرجة الأولى الذي يحتاج إلى شرح المفاهيم وبيان صحيحها أكثر من غيره.

وتضم سلسلة في دائرة الضوء أيضًا عشرات من المصطلحات والأحداث منها على سبيل المثال:

وحدة الفكر الإسلامي - الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون- في سبيل إعادة كتابة تاريخ الإسلام- في مواجهة الفراغ الفكري والنفسي للشباب-

(1) راجع أنور الجندي، معلمة الإسلام، طبعة خاصة محدودة على نفقة المؤلف، الجزء الأول/ المصطلح ٣٤

التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام- تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث- مؤامرة تحديد النسل وأسطورة الانفجار السكاني- الخلافة الإسلامية- السلطان عبد الحميد -...

السلطان عبد الحميد

وإذا أخذنا على سبيل المثال مادة "السلطان عبد الحميد" الذي يُعدّ صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم في مواجهة تحديات الاستعمار والصهيونية، وشوّهه الصهاينة والغرب الاستعماري وأتباعهم من بني جلدتنا؛ بسبب مواقفه التاريخية ضد أطماعهم في فلسطين وغيرها، نجد أنور الجندي يكشف طبيعة هذه الشخصية في التاريخ الإسلامي المعاصر التي لقيت كثيرًا من الغبن والظلم والإعنات، ويشير إلى أن التعتيم على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني انزاح بعد سنوات طوال، وظهر جهاده الباسل ومقاومته العنيدة للمؤامرة الضخمة التي حاولت أن تستغله وتخدعه أو تغريه كي يفرط في أرض المسلمين، ويسلم فلسطين لليهود الغزاة. لقد تحمل الوعيد والتآمر صابرًا صامدًا طوال حياته وبعد موته.

تولى السلطان عبد الحميد الخلافة عام ١٨٧٦، وتم خلعه عام ١٩٠٩، وتوفي عام ١٩١٨. وشنت عليه صحف المارون في مصر ولبنان حملات ضارية عندما أبدى صلابة وصمودًا في مواجهة المتآمرين، وامتدت الحملات لتصل إلى مناهج المدارس والأدب المقررة على الطلاب في مدارس معظم البلاد العربية، وتصوره في ثوب الطاغية المتسلط. ظلت هذه الصورة زهاء خمسين عامًا، وأخذ موقف الرجل الحقيقي يتضح عقب ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون التي كشفت مخطط المؤامرة على الدولة العثمانية والخلافة، واتضحت بصورة أوضح بعد ترجمة مذكرات الصهيوني تيودور هرتزل الذي روى باستفاضة وتوسع قصة العروض والوساطة بينه وبين السلطان ورد السلطان عليه.

لقد فهم السلطان أبعاد المؤامرة التي اشترك فيها اليهود والغرب والماسون والدونمة والاتحاد والترقي، بينما خفيت على الرأي العام في حينه. وكانت تصرفاته انطلاقًا من فهم خفايا المؤامرة.

الوطن القومي

لقد وصفه أعداؤه بالدهاء، فقد كان يدرك أن الدولة العثمانية فقدت التفوق العسكري، واستطاع أن يواجه الأمر بحكمة أزعجت خصومه وأعجزتهم.

بعد مؤتمر بال في سويسرا عام ١٨٩٧ تحدد أمر الاتصال بالسلطان عبد الحميد لإقامة ما يسمى الوطن القومي لليهود. وبدأت المعركة الخفية بين السلطان واليهود عقب إصراره على عدم التسليم لهم بأي مطمع في فلسطين.

عزم السلطان على أن يمضي في دعوته إلى الجامعة الإسلامية وتجميع المسلمين من خارج دولة الخلافة؛ ليدخلوا تحت لوائها لمواجهة خطر النفوذ الاستعماري الزاحف على العالم الإسلامي، وقد نجحت هذه الدعوة في تصفية الخلاف السياسي بين تركيا وفارس، وبين السنة والشيعة، ويؤثر من كلامه في هذا السياق:

"إن السم القديم يجب ألا يسري في جسد آسيا القوي، وعلى السنيين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوروبة في محاولتها قهر العالم".

كما تؤثر عنه صيحته الشهيرة:

"يا مسلمي العالم، اتحدوا"

سكة حديد الحجاز

لقد اتخذ وسائل عملية عصرية لترسيخ الوحدة الإسلامية فأقام سكة حديد الحجاز التي جمع لها سبعة ملايين من الدنانير، وكذلك سكة حديد بغداد.

وبلغت قمة ذكائه ودهائه أنه كان يسارع بإفساد خطط الغرب لإشعال الحروب، ووصفت خطته بأنها تمثل "سياسة التوازن الدولي" التي تبقي سياسة الدول الغربية متحاسدة متنابذة في الأمور التي تتعلق بتركيا ومستقبلها.

وكانت رؤيته إزاء الغرب بعد قرنين من هزيمة الدولة العثمانية وتقهقرها كما تقول الدكتورة ألما ولتن تقوم على الجرأة والتحدي. ومن ذلك قوله:

" يجب ألا ندع الغرب يبهرنا، فإن الخلاص ليس في المدنية الأوروبية وحدها".

وقوله:

"إن تركيا هي نافذة الإسلام التي سيشع منها النور الجديد".

لقد لقي السلطان تأييدًا وترحيبًا كبيرين على امتداد العالم الإسلامي إيمانًا بفكرة الجامعة الإسلامية وتأييدًا لها.

وقد أشار إلى ذلك سفير بريطانيا لدى الباب العالي عام ١٩٠٧ إلى خطر ما يدعو إليه السلطان؛ حيث قال:

"يمكننا أن نقرر أن من أهم حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل (١٨٩٧ - ١٩٠٧) خطة السلطان الباهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم (تعداد المسلمين في العالم آنئذ) في ثوب الخليفة- الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي- وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز، ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح حائزًا على خضوع رعاياه له خضوعًا أعمى".

تمزيق الخلافة

ومن المفارقة أن السلطان ضُرب من هذه الناحية، توحيد المسلمين تحت راية الخلافة، فقد كان يواجه مطامع كبيرة من الدول الأوروبية واليهود وروسيا بقصد تمزيق الإمبراطورية الإسلامية، ووراثتها بعدما أطلقوا عليها الرجل المريض، فاستخدموا سلاح العنصرية الذي تبناه أعضاء تركيا الفتاة والاتحاد والترقي بالدعوة إلى الطورانية، وآزرهم يهود الدونمة الذين كانوا يمهدون للوصول إلى فلسطين.

واجه السلطان عبد الحميد هذا المخطط بقوة وبسالة، وأخضع دائرة القدس لإدارته مباشرة بعد فصلها عن ولاية سورية بمجرد أن عرف بالمخطط الصهيوني للسيطرة عليها واحتلالها. وعندما شرع هرتزل يفكر في مقابلة السلطان وتوسل إلى ذلك بالسياسي الألماني بسمارك؛ حيث كانت ألمانيا حليفًا لتركيا، وشخصيات أخرى بارزة من أجل أن يقنع السلطان بمنح اليهود مساحة من أرض فلسطين، مقابل استعداد اليهود دعم مالية الدولة العثمانية وتصفية ديونها، بدفع خمسين مليونًا من الجنيهات الذهبية للدولة وخمسة ملايين أخرى لخزينة السلطان الخاصة، ثم التأثير على الرأي العام الأوروبي ليقف إلى جانب السلطان.

موقف حاسم

وكان للسلطان موقف تاريخي حاسم حين رفض العرض اليهودي، وقال لهرتزل:

"أنصح للدكتور هرتزل ألا يسير أبدًا في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدة من البلاد؛ لأنها ليست لي بل لشعبي، ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة الدماء وقد غذاها بعد بدمائه، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا.

ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا ما قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون قتال. إننا لن نقسم إلا جثثا، ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأي غرض كان- يونيو ١٨٩٦).

بعد يأس هرتزل من السلطان بدأت مرحلة التهديد والتآمر، وانطلقت صحف المارون: المقطم والأهرام والمقتطف والهلال في الحملة على السلطان، وراح كتابها من أمثال جورجي زيدان وسليم سركيس وفارس نمر يصفونه بالسلطان الأحمر، وألف الأول قصة الاستبداد العثماني، ورمي السلطان بعشرات الاتهامات الباطلة تمهيدًا للقضاء عليه وبعدها جرت محاولات اغتياله ثم إسقاطه.

المادة الخامسة

لقد أخذ اليهود بعد إخفاقهم- كما يقول المؤرخون المنصفون - ينفذون المادة الخامسة من بروتوكولات حكماء صهيون التي تنص على وجوب تلفيق الوقائع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس؛ للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم، وبدأت حملة كراهية السلطان، واتهموه بالقتل والحرق والإغراق، وجاءت محاولة اغتياله بتفجير قنبلة على موكبه عقب صلاة الجمعة، وتوالت أحداث المؤامرة حتى تم عزله وسيطرة الاتحاديين على السلطة، ففتحوا الطريق لليهود نحو فلسطين وسلموا طرابلس الغرب للطليان. ويورد أنور الجندي تفصيلات لهذه المؤامرة بأبعادها المتشعبة مع التركيز على الصورة المزيفة التي صُنعت للسلطان ومنها ما يسمى مذبحة الأرمن، ودسّ السمّ لجمال الدين الأفغاني، وكشف الصورة الحقيقية من خلال كتابات المنصفين من كتاب الغرب الاستعماري، ومنهم لوثروب ستيوارت والدكتورة ألما ولتن.

ولم يمنع ذلك أنور الجندي من الإشارة إلى بعض أخطاء السلطان في سنوات حكمه الطويلة، ومنها:

١ – تعاونه مع ألمانيا مما جرّ عليه خصومة إنجلترا وفرنسا.

٢ – تردده في اتخاذ اللغة العربية لغة الدولة العثمانية.

٣ – الاتجاه إلى الطرق الصوفية وليس إلى التيار الإسلامي الأصيل.

٤ – إهمال التدريب العسكري وعدم العناية بالأسطول.

وقد ظهرت في العقود الأخيرة مجموعة من الدراسات التاريخية والبحوث الجامعية، فضلًا عن مذكرات السلطان عبد الحميد، وكلها تصب في جلاء صورة السلطان عبد الحميد التي طمسها اليهود وأتباعهم في الغرب والشرق بالزيف والبهتان والضلال[1]..

المسار الصحيح

إن تصحيح المفاهيم والتاريخ حول السلطان عبد الحميد ودوره في الدفاع عن الخلافة الإسلامية في أواخر أيامها يعيد الوعي الإسلامي إلى مساره الصحيح بمعرفة الحقائق الأصلية التي زيفها أعداء الإسلام.

لقد ارتبط السلطان عبد الحميد والخلافة العثمانية في أذهان كثير من العرب والمسلمين بالاستبداد والبطش والجهل والغرق في بحار الرذيلة والشهوات. يبدأ هذا الارتباط من مراحل التعليم الأولى وكتب التاريخ التي يتم تقديمها للطلاب فيرون شخصية مخيفة مناقضة لأخلاق الإسلام وقيمه ومفاهيمه. ومن ثم تبدو أهمية الدور الذي قام به أنور الجندي في تصحيح المفاهيم خدمة للحقيقة وإنصافًا للمظلومين، وقبل ذلك وبعده استجابة لنداء الإسلام بقول الحق والصدق وكشف الزيف والبهتان.

(1) انظر: أنور الجندي، السلطان عبد الحميد، سلسلة في دائرة الضوء رقم ٤٣، دار الاعتصام، د.ت

obeikandl.com

لقد ألح أنور الجندي في كثير من كتبه على جانب تصحيح المفاهيم وجلاء حقائق التاريخ بوصف ذلك ضرورة على طريق النهضة الإسلامية المعاصرة وتحرير المسلمين من التبعية والهيمنة الغربية.

إنه يرى في المفاهيم المغلوطة تحديات وعقبات في وجه النهضة الإسلامية واستقلال المسلمين؛ ولذا نراه يؤكد كثيرًا على مجموعة من المفاهيم في الثقافة والأدب واللغة العربية والتاريخ والعلم والفلسفة والفن؛ فيصححها ويتناولها بالمفهوم الإسلامي السليم، حتى لا ينخدع الناس بما يعلن أو يقال حول هذه المصطلحات.

مفهوم الفن

إنه يرى مثلًا أن المفهوم الإسلامي للفن يقوم على استحالة التناقض مع الفطرة، وإذا كانت الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الإسلام في شيء، وحين تخالف الفنون الدين في أصوله ودعت صراحة أو ضمنًا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان عن أن يعمل بالفضائل التي أوجبها الدين عليه؛ فهي فنون باطلة.

والفن في المفهوم الإسلامي عنصر من عناصر الفكر يتكامل مع الأدب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة، وله طابعه الأصيل الواضح المباين لمفهوم الفن في الحضارات الأخرى، قوامه الأخلاق وطابعه التوحيد والتسامي بالغرائز والارتفاع بالنفس الإنسانية إلى الكمال دون أن يبتعد عن الواقع. إنه في المفهوم الإسلامي أداة لتجميل الحياة ووسيلة الإسعاد الروحي بتحرير الإنسان من عالم الأهواء والغرائز وإطلاقه في نظرة حرة إلى الكون والوجود؛ ليتعرف على قدرة الله تبارك وتعالى ويزداد بها إيمانًا.

لقد أدخل النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية مفاهيم الوثنية والمادية التي عرفها الفن في الغرب من قبيل الصراع بين الآلهة والإنسان أو بين القدر والإنسان، وهو ما لا يتفق مع التوحيد، أضف إلى ذلك أن المسلم لا يؤمن بفكرة الخطيئة الأولى ولا تجسيد الإله في صور حسية وثنية ولا عبادة الطبيعة أو المحسوسات، أو عبادة البطولة في صورة مادية؛ رغبة منه في تحرير البشر من التجزئة بين الماديات والمعنويات.

ولهذا حقق الفن الإسلامي مذهبًا جديدًا مستمدًّا من حقائق الإسلام، فكان فنًّا منطلقًا وتجريدًا معبرًا وليس جامدًا، وصارت الزخرفة أو الزرقشة كما يسميها أنور الجندي بغير ابتداء ولا انتهاء، وتمثل مفهومًا من مفاهيم التوحيد؛ لأنها تسعى وراء الله (تبارك وتعالى) الذي هو الأول والآخر، ومنه تبدأ الأسباب وإليه تنتهي المسببات[1]..

مصححو المفاهيم

ويبدو أن فكرة تصحيح المفاهيم ألحت كثيرًا على أنور الجندي فكتب رسالة عن تصحيح المفاهيم في تاريخنا الإسلامي البعيد، ووجد في الغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن خلدون أعلامًا لهذا التصحيح.

وهؤلاء الأعلام لم يكونوا متخصصين في مجال بناء السنة والفقه والعقائد، ولكنهم عملوا في ميدان تصحيح المفاهيم وتجديد الفكر الإسلامي، وهي مهمة ضخمة لم يتصدر لها إلا قليل.

لقد كان هؤلاء العمالقة المصححون يهدفون في منهجهم إلى التماس مفهوم القرآن أساسًا؛ شجبًا لكل انحراف يحاول أصحابه صرف الفكر الإسلامي عن مجراه الأصيل ومنهجه الطبيعي.

(1) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ٣١٨ - ٣٢٠

ابن حزم

فابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (٩٤٤ - ١٠٦٤م) دافع عن مفهوم الوقوف عند النص في مقابل الإسراف في تجاوزه والمبالغة في الاستنتاج منه وتحميله كثيرًا من المختلف مما يحتمل وما لا يحتمل؛ حيث استفاضت في عصره نزعة التوسع في تحميل آيات القرآن ما تطيق وما لا تطيق؛ ولذا سمي ابن حزم الظاهري لوقوفه عند ظاهر النص.

إن معارضة ابن حزم للتأويل وحضه على التماس المفهوم القرآني الواضح والوقوف عنده؛ هي دعوة ابن حزم الأساسية.

رأى ابن حزم أن القياس والرأي قد باعدا بين المفهوم الأساسي وبين التفسير الذي وصل إليه الفقهاء، وكان ذلك مصدر فساد كبير تعرضت له الحياة الاجتماعية في الأندلس (موطن ابن حزم الأصلي).

وجاء مفهوم ابن حزم على هذا النحو:

"جملة الخير كله أن تلزموا ما نص عليه ربكم تعالى في القرآن بلسان عربي مبين، لم يفرط فيه من شيء تبيانًا لكل شيء، وما صح من نبيكم- ﷺ- برواية الثقات من أئمة أصحاب الحديث رضي الله عليهم، مسندًا إليه- عليه السلام- فهما طريقان توصلكم إلى رضا الله ربكم عز وجلّ.. واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن له، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه، واتهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان، وكل من دعا للديانة سرًّا وباطنًا فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله- ﷺ- لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب؛ على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا عنده- عليه السلام- سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتمهم شيئًا لما

بلّغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر، فإياكم وكل قول لم يتبين سبيله ولم يوضع دليله، ولا تخرجوا عما مضى عليه نبيكم- ﷺ".

في موسوعته الضخمة "المحلى" استطاع ابن حزم أن يكشف عن جوهر رأيه ومفهومه التصحيحي، فاستطاع أن يجدد شباب الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي، وأن يقدم آراء ناصعة جديدة دفعت تيار الثقافة الإسلامية إلى الأمام[1]..

الغزالي

وإذا كان ابن حزم قد جابه الجمود والتقليد وجدد الفكر الإسلامي من خلال الكتاب والسنة والاحتكام إلى العقل ومقاومة التقليد؛ فإن الغزالي، الإمام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري (١٠٥٨ - ١١١١م) واجه عناصر عديدة من خصوم الفكر الإسلامي كالباطنية والدهرية وفلاسفة الإلهيات وعلماء الكلام وشجب مفاهيمهم جميعًا، وأعلن أن أسلوب القرآن هو أعلى الأساليب وأبلغها وأدقها وأقربها إلى مختلف العقول والنفوس، وأنه أصدق من أسلوب المتكلمين وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات المختلفة.

واجه الغزالي الفلسفة فأثبت حقها في مجال الفلسفة الطبيعية والرياضية، ولكنه هاجم "الفلسفة الإلهية" وحدها؛ لأن أغلب العلوم الفلسفية الطبيعية والرياضية أمور برهانية، ولم يتعرض لها الشرع بالنفي أو الإثبات، فلا يخدم الإسلام إنكارها، وليس فيها ما يتعرض للأمور الدينية.

الأغلاط والتخيلات

أما الفلسفة الإلهية ففيها كثير من الأخطاء، ولم يستطع أصحابها أن يفوا بالبراهين على ما شرطوه في المنطق. والإلهيات ليست كالعلوم الأخرى (الرياضة

(1) راجع: أنور الجندي، مصححو المفاهيم، في دائرة الضوء، رقم ٢٨، دار الاعتصام، د. ت، ص ٣ - ٧

والطبيعة)، وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادئ، ولهذا (كثرت أغلاطهم وتخيلاتهم)، وقد ألحدوا وأنكروا الدين. وحصر الغزالي خلافه مع فلاسفة الإلهيات في ثلاث مسائل:

١- قولهم بقدم العالم.

٢- قولهم بأن الله- سبحانه- لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

٣- إنكارهم بعث الأجساد وحشرها.

ومن هنا فإن الحملة التي توجه دومًا إلى الغزالي بأنه خصم للفلسفة هي دعوى باطلة؛ لأن الغزالي هاجم الفلسفة الإلهية الإغريقية الوثنية التي لا تتفق مع عقيدة التوحيد.

لقد استطاع الغزالي بقدرته الفكرية العريضة أن يستصفي الفكر الإسلامي من الدعوات المنحرفة التي اتصلت به عن طريق الشعوبية والباطنية لتغيير مفهومه أو هدم مقوماته.

وقد اختار الغزالي منهج "التعليم والثقافة" بدلًا من أسلوب "الجدل الكلامي"، وناقش المسائل على أساس "العقل المتأدب بالشرع".

ثم إنه يمزج علم النفس والأخلاق والدين، ويرى أن هدف الدراسات النفسية هو أن تكون وسيلة إلى تهذيب النفس، وأن دوافع السلوك في الإنسان هي: الطعام والجنس والمال والجاه.

واجه الغزالي أكبر معضلات الفكر الإسلامي كله بالتقاء هذا الفكر وتكامله مع الفقه والتصوف والفلسفة والدين والعقل والقلب. (السابق، ص ٩ - ١٤).

ابن تيمية

أما ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (١٢٦٣ - ١٣٢٨م)، فهو حامل لواء الوسطية في مواجهة الانحراف، والتكامل في مواجهة التجزئة، والحركة في مواجهة الجمود، وفق سنة ثابتة وقانون صارم يتمثل في مجرى الفكر الإسلامي منذ نزول القرآن.

وأعلن ابن تيمية أن الأساس الأصيل للفكر الإسلامي يتمثل في الكتاب والسنة، وأن الكتاب ليس علم عقائد بالخبر والنقل فحسب، بل بالدليل والبرهان، وأن النبي - ﷺ - فسر القرآن كله؛ لأنه هو الذي عليه أن يبينه ويوضحه، وبيانه من أركان تبليغ الرسالة.

ويرى ابن تيمية أن منهاج القرآن ليس هو منهج الفلاسفة ولا المتكلمين ولا الماتريدية ولا الأشاعرة، بل هو غيرها؛ لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص التي هي وحي أوحي به إلى النبي - ﷺ - وأن الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة في الإسلام، ولم تكن معروفة قطعًا عند الصحابة والتابعين.

وجملة منهج ابن تيمية: "أن الفساد لم يأت من قبل النصوص فهي حق في معناها ولا تحتاج إلى تأويل، وإنما جاء من حملها على معان فاسدة ليست معانيها المرادة بها"[1]..

المفارقة أن ابن تيمية يلقى هجومًا عنيفًا في زماننا من أطراف عديدة، أظن أنها لم تقرأ إنتاجه ولم تتابع فكره وسلوكه ضد الغزاة، والخونة الذين انضموا إليهم من بعض الطوائف المتمردة في بلاد الشام، ولكنه يبقى علامة مضيئة في تاريخ الفكر الإسلامي، والجهاد ضد الغزاة والمستبدين والخونة وأعداء الدين.

(1) انظر: السابق، ص ١٥ - ١٩

ابن خلدون

وقد جاء ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في القرن الثامن الهجري ليرى عالم الإسلام قد تغيّر تغيّرًا كاملًا بعد أن مرت به جحافل الصليبيين والتتار وصارعته، وكان ابن خلدون على مستوى الثلاثة الكبار السابقين (ابن حزم والغزالي وابن تيمية) في تجديد الفكر الإسلامي؛ حين هاجم أسلوب الجدل اللفظي والمماحكات الكلامية في التأليف والشرح والتعليم، وأنكر منهج التقليد ودعا إلى التماس منابع الفكر الإسلامي في الإسلام نفسه، وأنكر طريقة الجمع والاختصار التي شاعت في عصره، وقال إنها مخلّة بالتعليم، وبيّن الطرق الصالحة فيه.

وتميز ابن خلدون أنه كان على قدر وافر من الإحاطة بالحركة العلمية في العالم الإسلامي كله وفي بلاد أوروبة أيضًا.

كما كان وسطًا في الرأي بين ابن رشد في الفلسفة والغزالي في التصوف، فلم يذهب في الفلسفة ذهاب ابن رشد، ولم يعارض التصوف وأخذ فيه بمنهج الغزالي.

الأصول المؤصّلة

وإذا كان الفكر الغربي قد أفاد من حصيلة الفكر الإسلامي في مجال "منهج العلم التجريبي" الذي أنشأه المسلمون؛ فإن عصارات ضخمة من الفكر الإسلامي في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية قد حصل عليها الفكر الغربي وحاول الادعاء بأنه مبتدعها أصلًا، بينما كانت كتابات ابن سينا والغزالي وابن خلدون والماوردي وعشرات غيرهم؛ هي (الأصول المؤصلة) لعشرات من النظريات العلمية الحديثة في مجال الفكر.

وآراء ابن خلدون في طليعة هذه الحصيلة، ومنها:

أولا: اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهور الأسرار ونهوضها قبل أن يعرفها (أوتو كار لوتيس) في أواخر القرن التاسع عشر.

ثانيًا: عرف ابن خلدون قانون (التشبه بالوسط) قبل أن يعرفه العالم الطبيعي (داروين) بخمسة قرون.

ثالثًا: اكتشف مبدأ وجود المادة قبل أن يكشف ذلك العالم الألماني آرنست هيجل بأكثر من خمسة قرون أيضًا.

رابعًا: سبق ميكافيللي ومونتيسكو وفيكو في وضع أصول علم الاجتماع.

خامسًا: اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون.

سادسًا: اكتشف مبدأ الحتمية الاجتماعية قبل الفلسفة الإسبانية وعلم النفس بقرون عديدة، وأعلن تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة في القرن الرابع عشر الميلادي.

سابعًا: أدرك أن علم الاجتماع يضم مظاهر كثيرة منها: السياسة والاقتصاد والعلم والتعليم، وبعد ابن خلدون بخمسمائة عام؛ قال الفكر الغربي إن العلوم كلها مظاهر من علم الاجتماع.

ثامنًا: قوّى من الروح التجريبية والنظر العلمي الواسع الأفق.

ومع أن ابن خلدون عرف بوصفه مؤرخًا وواضع علم الاجتماع، فقد كان غير منفصل عن مجرى الفكر الإسلامي، وشارك بقوة في تصحيح المفاهيم وتجديد الفكر التربوي والتعليمي[1].

(1) راجع: أنور الجندي، مصححو المفاهيم، ص ٢١ – ٢٤

obeikandl.com

مدرسة حديثة

ولاريب أن هذه المدرسة التي قامت بتصحيح المفاهيم قديمًا تلهم مدرسة حديثة تصحح وتقوّم وتجدد، وتمنح أملًا في بناء مستقبل إسلامي أفضل.

ويجب ألا ننسى أن أنور الجندي واحد من رواد هذه المدرسة الحديثة إن لم يكن رائدها الأول.

وهو يخبرنا أن هناك علمًا جديدًا يولد في أفق الفكر الإسلامي الحديث يسمى:

"علم المواجهة وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم، وتحرير القيم".

ويبنى هذا العلم على سؤال فحواه:

قولوا لنا أولًا من الذي كتب؟

نحن نعرف الحق بالرجال، ولكي نعرف الحق فلابد من معرفة أهله أولًا قبل القراءة، ثم نضعه على منصة التشريح، كما نضع عقله على مائدة التحليل.

لقد عرف المسلمون قديمًا علم الجرح والتعديل فدرسوا الرجال الذين يؤخذ عنهم العلم وصنوفهم، وعلينا أن نطبق هذا العلم على المعاصرين الذين يتصدرون حياتنا الأدبية والفكرية فلا تبهرنا الأسماء اللامعة ولا الأضواء المسلطة ولا تأخذ بألبابنا الأوراق الناعمة والأغلفة البراقة والصور الملونة، فإن الزيف يغلف دائمًا ويبهر، أما الحق فإن أصحابه فقراء.

العلم وصاحبه

إن فصل العلم عن صاحبه نظرية لا يقرها الإسلام:

روى الحافظ أبو ليلى عن حماد عن الشعبي عن جابر عن رسول الله- ﷺ:

"لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق".

والمسلمون يأخذون العلم الطبيعي والتجريبي عن أي مصدر فهو من الأمور الإنسانية العالمية المشتركة، ولكنهم لا يأخذون مفاهيم العقائد ونظرة الوجود إلا من القرآن والسنة لأنها من الأمور الخاصة.

لقد نقل الغرب علومنا دون أن يعتنق ديننا أو ثقافتنا واحتفظ بقيمه ومفاهيمه، وكذلك فعل العرب والمسلمون حين نقلوا العلوم وترجموا الفلسفات.

بيد أن المحاولات الدائبة ما زالت مستمرة لحمل المسلمين والعرب على قبول الذهنية الغربية والخروج من ذهنية الإسلام وإزالة ذاتيتهم، من خلال بعث هويات مناقضة للشخصية الإسلامية الأصيلة، وهي:

- اليونانية الإغريقية.
- الفرعونية الوثنية.
- الجاهلية العربية.
- الغربية الأوروبية والأميركية.

والإسلام في كل الأحوال يرفض تأليه العلم وتقديس العقل، وعبادة البطولة[1].

.

وأظن أن بداية هذه المدرسة قد أخذت شكلًا أكاديميًّا في المغرب الشقيق من خلال فكرة دراسة المصطلح التي بدأها صديقنا الشاهد البوشيخي في المجال الأكاديمي، وأظنها الآن قد توسعت من خلال المؤتمرات والندوات التي انعقدت حول الموضوع فضلًا عن بعض الدراسات والمقالات التي تظهر في بعض الدوريات، ولا ريب أن ذلك سيوسع دائرة تصحيح المفاهيم من خلال تمحيص المصطلحات واستخدامها الدقيق.

***

(1) انظر: أنور الجندي، تصحيح المفاهيم الإسلامية، ص ٢٣ - ٢٥

obeikandi.com

خامسًا: الفكر الوافد ومخططاته

وسيلة أخرى

لم تكن الجيوش العسكرية الجرارة الوسيلة الوحيدة للغرب الاستعماري واليهود الصهاينة في سعيهم الحثيث للسيطرة على البلاد الإسلامية والهيمنة على مقدراتها وإخضاعها تمامًا للإرادة الأجنبية حتى تصير تابعة ذليلة مهيضة الجناح.

كانت هناك وسيلة أخرى أقسى وأخطر. فقد قامت الجيوش الاستعمارية والمنظمات العسكرية الإرهابية باحتلال معظم بلاد المسلمين وفلسطين، ولكن هذا لم يكن كافيًا لعملية الإخضاع والهيمنة؛ لأن الشعوب الإسلامية واجهت الجيوش والمنظمات بالجهاد والمقاومة، وهي مقاومة بذلت الدم والمال والثروات في سبيل الاستقلال والتقدم، فسحب الغزاة جيوشهم الجرارة من كثير من البلاد الإسلامية، بيد أنهم تركوا أصدقاءهم وأتباعهم من أهل البلاد المحليين ليكونوا امتدادًا لهم، يقوم بتنفيذ مخططاتهم في الواقع الإسلامي، ويتطوّع بنشر أفكارهم وفقًا لمشيئتهم المتسلطة. وكان هذا الامتداد متمثلًا في النخب والطبقات التي صُنعت على أعينهم وحظيت برعايتهم وتربيتهم.

لقد عمل الغزاة بجد ودأب ومن خلال تخطيط مدروس وبأساليب في غاية الخبث والدهاء والشمول على تنشئة هذه النخب وتلك الطبقات طوال عقود مديدة، منذ غزوة نابليون لمصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر على الأقل. وظل هذا العمل الدءوب عقب أن فشلت الحملات الصليبية المسلحة التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر وظلت نحو قرنين من الزمان، واستأنفوها في الأندلس حتى تم

إسقاطه وطرد المسلمين منه، وتنصير من تبقى؛ حيث عرف العالم آنئذ ما يسمى بمحاكم التفتيش في وحشيتها الهمجية، ودمويتها البشعة.

لقد نهب الغزاة الصليبيون ثروات المسلمين والمخطوطات والمكتبات، وعرفوا كثيرًا من معالم الحضارة الإسلامية التي دفعتهم إلى دراسة ما يتعلق بأهلها وكيفية السيطرة عليهم، ثم استطاعوا بمخترعاتهم أن يعاودوا الكرة من خلال ما عرف بالاستعمار والسيطرة على العالم الإسلامي كله، وكان القرن التاسع عشر والقرن العشرين مسرحًا زمنيًّا لهذه التجربة الدموية الجديدة التي بدأها نابليون باحتلال مصر والشام، ثم السيطرة على أطراف العالم الإسلامي في إفريقية وآسيا حتى سقطت معظم بلاد المسلمين في أيديهم.

صناعة النخب

كان العمل على قدم وساق من جانب الغزاة الاستعماريين لصناعة النخب والطبقات الموالية لهم، وفي الوقت ذاته يثابرون على نشر أفكارهم ومنظماتهم السرية والعلنية؛ لإخراج الأمة من دينها وقيمها، وتحويلها إلى مسخ إنساني شائه، لا يستطيع أن يمضي مثلهم في بناء الحضارة، ولا يمكنه أن يعود إلى طبيعته وخصائصه القومية والوطنية.

ومن المفارقات أن وجود هذه الأفكار وتلك المنظمات كان مغلفًا بالرغبة الحماسية في النهضة والتجديد والاستجابة لروح العصر، والخروج من التخلف والجمود والتقليد، ومواجهة الرجعية والظلام، والبحث عن مناهج الغرب المتقدم للحاق به ومساواته في المستوى الحضاري!

وكان الأستاذ أنور الجندي على امتداد حياته الفكرية مشغولًا بهذه المسألة، والنداء على قومه وعلى المسلمين عامة كي ينتبهوا إلى الفكر الوافد ومخططاته

التي لا تريد بهم خيرًا، ويحثهم على اليقظة والمقاومة والاستمرار فيها من أجل دينهم وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

منطلق الفكر الوافد

ويمكن القول إن الفكر الوافد انطلق من مصدرين، أولهما فكر الاستشراق أو الرؤية الغربية التي تشكك في الثوابت الإسلامية، وتزيف التاريخ الإسلامي، وتلح على القضايا الخلافية وتضخمها بهدف إثارة الفتنة والنعرات المذهبية والعرقية، فضلًا عن الخلافات الطائفية.

والآخر هو فكر الصهيونية التلمودية التي تسعى للسيطرة على فلسطين والعرب والعالم عن طريق المكر والدهاء والخطط السرية والعلنية التي توظف الصحافة والإعلام والكتّاب والمنظمات النوعية والعامة والفنون الآداب والمذاهب الفكرية لتمرير الأفكار والآراء التي تخدمها أو تمهد الأرض لتنفيذ أهدافها.

إن تجنيد القوى المنظورة وغير المنظورة في كل موقع على امتداد العالم يهيئ للسيطرة الاستعمارية أو الصهيونية.

هناك مثلًا ماسونية رمزية تدخل فيها أندية الروتاري والأونرهويل، وما شابه، ولها وجود مؤثر داخل مصر والبلاد العربية والإسلامية، وهناك ماسونية ملوكية وثالثة كونية لا يدخلها إلا قادة العمل الصهيوني.

تحت كل واحدة من هذه الماسونيات عشرات الأنشطة ومئات الصحف والقنوات والإذاعات وآلاف المرتزقة في كل بلدان العالم العربي والإسلامي وخارجه.

والغاية لهؤلاء المرتزقة العمل على تدمير الإنسان معنويًّا وهدم الأديان وتزييف التاريخ وفرض الفكر المادي البشري، وترويج الانحلال والتجسس الفكري بما يخدم الصهيونية العالمية والقوى الكبرى.

رأس الحربة

لقد استطاعت المفاهيم والنظريات الوافدة أن تتغلغل في المدارس والمعاهد الجامعات مع وقوع العالم الإسلامي في قبضة النفوذ الاستعماري، وقامت الإرساليات ومؤسسات التبشير والاستشراق برأس الحربة في هذا الميدان، وآزرتها طبقة المثقفين الموالية للفكر الوافد حيث تصدروا المشهد الثقافي والإعلامي والتعليمي، في ظل إقصاء تيار الفكر الإسلامي.

كان للفكر الوافد أثر خطير في حياة المسلمين؛ حيث صارت الحياة العقلية تمضي شبه نائمة وراء هذا الفكر وتستجيب لما يمليه من خطط وأوامر.

بيد أن اليقظة الإسلامية راحت تواجهه، وتكشف أخطاره وسلبياته، وتقدم البديل الإسلامي الذي يعيد للأمة توازنها، ويدفعها لتمضي على طريق الصحوة والبناء والاستقلال.

لقد جاء الفكر الوافد بالفلسفة المادية والعلمانية والتفسير المادي للتاريخ والبراجماتية والعنصرية والنسبية والإباحية والوجودية والهيبية والبهائية.. وغيرها.

إن موقف الإسلام من الفكر البشري محكوم بالوحي، والفلسفة ليست قرينة الوحي ولا مناظرة له؛ ولذا فالإسلام حاكم على الناس والمدنيات والأمم ولم يجئ محكومًا بالناس أو تبرير النظم والأيديولوجيات، فضلًا عن كونه نظامًا متكاملًا له مقوماته المستقلة التي تخضع للأهواء والأغراض. وقد جنب مفهوم التوحيد في الإسلام المعارف الإسلامية الانقسام إلى ديني وعقلي[1]..

وفيما يلي بعض النماذج التي أسس لها الفكر الوافد ومخططاته، ووجدت لها صدى في الواقع الفكري والثقافي العربي والإسلامي، وكسبت بعض الأنصار

(1) أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ٢٨٤

على تفاوت، ولكنها جميعًا شاركت في تعويق مسيرة النهضة العربية الإسلامية، وتسببت في كثير من المضاعفات والسلبيات.

النموذج الأول

ويمكن في هذا السياق مثلًا معالجة فكرة "الحضارة الواحدة" التي يتبناها الفكر الغربي الوافد. فهو يطرح مفهومًا فلسفيًّا تاريخيًّا يقول بأن العالم لم يشهد غير حضارة واحدة؛ هي حضارة البحر الأبيض المتوسط، هذه الحضارة التي تتصل من القديم بالفينيقيين والبابليين والحيثيين والآشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم، وهي التي لم تلبث أن أصبحت حضارة يونان ورومان، ثم دخلتها عناصر عربية في فترة من فتراتها، ثم لم تلبث أن عادت إلى أوروبة، ويرى أصحاب هذه النظرية أن الحضارة قامت على ثلاث قوائم هي: الفكر اليوناني والنظام الروماني والدين السامي.

وهذا المفهوم يحمل لواء العنصرية التي تنسب الحضارة إلى الغرب وحده، وأن الإسهام الشرقي فيها من جانب الوثنية البابلية والآشورية والفرعونية، وأن الشرق كله تابع لحضارة الغرب قديمًا وحديثًا.

والأمر ذاته ينطبق على ما يسمونه الدين السامي فهو يعود إلى عناصر هندوسية وفارسية ومصرية تم صهرها والانتقاء منها حتى انجلت عن دين حيّ فعال بعث في قلب الإنسانية الرجاء والأمل..! وهي ما يعني إزاحة الشرائع السماوية الكبرى التي ظهرت في الشرق.

موقف ظالم

ويقف المستشرق البلجيكي "جورج سارتون"(١٨٨٤ - ١٩٥٦)، وغيره من دعاة الحضارة الواحدة موقفًا ظالمًا من الإسلام، ينتقص من دوره الضخم في التغيير الجذري الذي أدخله على الفكر والتاريخ والجغرافيا. إذ يسند إلى العرب

دور الناقل لما ورثوه عن الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط وما أخذوه من النصارى واليهود وصابئة حران الوثنية.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن العرب لم يدخلوا التاريخ العالمي إلا عندما خرجوا من الصحراء وأنهم حين خرجوا من الصحراء ولّوا وجوههم نحو الغرب لا الشرق، ولم يكن للصحراء أثر محسوس في ثقافتهم وحضارتهم.

والحق أن العرب قد استمدوا وجودهم الفكري من محور "مكة" الأصيل الذي بدأ به إبراهيم وانتهى به محمد - ﷺ.

محور مكة ليس هو الصحراء الذي تصوره هذه الكلمة، ولكنه مهبط الوحي واكتمال الرسالة الخاتمة. فالصحراء بهذا المعنى هي التي أهدت للإنسانية أروع معطيات الحق والتوحيد. والمسلمون لا تطرف لهم عين في الاتجاه نحو الكعبة قبلتهم في الصلاة. فأثر الصحراء بهذا المعنى كان محسوسًا في كل مقدرات حياتهم منذ يوم بزغ ضوء الإسلام وإلى اليوم وإلى آماد بعيدة لا حصر لها.

مفاهيم الفكر البشري

لقد جاءت الأديان السماوية المنزلة بثمار المعرفة الإنسانية، ولكنها اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية فانحرفت المفاهيم الأصيلة واستعلت مفاهيم الفكر البشري التي سيطرت بالوثنية والعنصرية وعبادة الأجساد والأبطال وإعلاء العقل أو الوجدان؛ كما جرى في الفلسفتين الإغريقية والهيلينية الشرقية، وكذلك انحرفت الأديان السماوية عن مضامينها الأصيلة انحرافًا خطيرًا فظهرت نظرية: إله الجنود عند اليهود، والأبوة الإلهية عند المسيحية، ومن وراء ذلك نظريات إنكار البعث وما يسمى الالتزام الأخلاقي ممثلًا في وحدة الوجود وغير هذا من انحرافات.

ومن ثم فقد جاء الإسلام راسمًا المنهج الرباني الذي يهدي الإنسانية إلى التوحيد الحق ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري ومن اضطرابها وفسادها. ولم يكن كما صوره جورج سارتون وغيره من دعاة نظرية الحضارة الواحدة وارثًا للفرس والبيزنطيين والأقباط واليهود وصابئة حران الوثنية.

لقد حرفت اليهودية التلمودية التوراة والإيمان بالله الواحد ومفهوم الحنيفية السمحاء التي تجعل الناس أمة واحدة؛ لا فضل لأحد على أحد ولا جنس على آخر إلا بالعمل والتقوى، وأحلت العنصرية أو شعب الله المختار مكان ذلك.

الإله يهوه

في كتابه قصة الحضارة، يقول وول ديورانت:

"يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي كانوا هم عليه وجعلوا منه إلهًا (هو الإله يهوه) فهو ليس خالقهم بل مخلوق لهم. وفي يهوه صفاتهم الحربية ويهوه إله قاس مدمر متعصب لشعبه؛ لأنه ليس إله كل الشعب بل إله بني إسرائيل فقط. وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو الشعوب الأخرى، ومن خلال هذا التحريف نشأت نظرية الشعب المختار وفكرة السيطرة على العالم، وتغلغلت فكرة الشعب المختار في أعماق النفسية اليهودية حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الديانة اليهودية بحيث إنها تصبح والعدم سواء إذا جردت منها[1].

ومن هنا كانت انطلاقة السيطرة على أساس أن المال هو الإله الحقيقي: على حد تعبير كارل ماركس حين يقول: إن المال هو إله إسرائيل المطاع وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش!

(1) وول ديورانت، قصة الحضارة، ص ٣٤/ ٢.

وكانت محاولة اليهود فرض هذا الإله على العالم، فإذا تحقق ذلك كان نصرًا ساحقًا لليهود. وأخذت اليهودية التلمودية تفرض نفسها مصدرًا للحضارة منذ فجر التاريخ واحتواء كل ما قامت الأمم المختلفة في منطقة الشرق من خلال دين إبراهيم، مع تجريف التاريخ بما يوافق هذه الغاية.

تجريف التاريخ

ويجري هذا التجريف مجاري عدة:

فهو يحاول أن يستوعب الفكر الإغريقي الوثني القديم ويستعيده من جديد، كما يجري تجديد الدعوات السابقة للإسلام كالفينيقية والآشورية والفرعونية.

ويحاول إنكار رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية وما يتصل بها من بناء الكعبة ونبوة إسماعيل، ومقاومة دعوة المسيح بالعنصرية التي جاء المسيح لمقاومتها.

وقد فصل القرآن الكريم في هذه القضية بإعلان نبوة إبراهيم وإسماعيل، وأشار إلى أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، وأن التوراة والإنجيل أنزلا من بعده، وقرر أن الحنيفية السمحاء هي التي شادت الحضارة التي عرفها الشرق كله وقامت على التوحيد، وأفسدتها العنصرية اليهودية!

إن العرب بالإسلام لم يكونوا قطعة غيار في الحضارة الواحدة، ولم يكونوا جزءًا منها، كما لم يكونوا حملة علوم قديمة وفلسفات وثنية لتقديمها مرة أخرى، بل كانوا واجهة عريضة خاصة، مختلفة كل الاختلاف متباينة كل التباين، تفرق فرقًا واسعًا بين فكر وفكر، ومفهوم ومفهوم، وحضارة وحضارة.

حضارة إسلامية متميزة

ومن العسير أن يقال إن هناك حضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط، فإنه مذ جاء الإسلام انشطر هذا الحوض وقامت حضارة إسلامية لها تشكيلها الروحي

والفكري والنفسي والاجتماعي، ولها منهجها المعرفي والعلمي التجريبي الذي قدمته إلى البشرية كلها وقامت عليها الحضارة الحديثة.

إن الحضارة التي سبقت الإسلام حضارة وثنية؛ لأنها قامت على الفكر البشري الوثني، أما حضارة الإسلام فقد جددت الدعوة الحنيفية القائمة على التوحيد والأخلاق، وهو ما يؤكد زيف الدعوة القائلة بأن العرب كانوا جزءًا من حضارة البحر المتوسط القديمة والجديدة، ومرحلة من مراحلها.

لقد نوه هنري بيرين في كتابه "محمد وشارلمان" بأن الإسلام كان القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوروبي حتى ليمكن أن يقال إن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ثمرتان من ثمار جهود الإسلام.

لقد تلاشى ما كان للرومان من آثار ومعالم بمجرد وصول الإسلام إلى أراضيهم، ولولا ظهور الإسلام لظلت الإمبراطورية الرومانية، ولظل البحر الأبيض بحرًا رومانيًّا، ولما قامت الثورات الأوروبية التي خلقت دول أوروبة الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عن الحضارة الراهنة[1]..

والغريب أن هناك من يحاول الآن أن يبعث فكرة الحضارة الواحدة بمفهومها العنصري الوثني، بقصد إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين، وطمس دوره المتميز في بناء الحضارة الحديثة.

ولا شك أن الصحوة الإسلامية الراهنة تقوم بدور مهم في مواجهة هذه الفكرة الوافدة التي تخدم الصهيونية التلمودية، وتؤسس لتثبيت الوجود الاحتلالي في فلسطين العربية المسلمة.. والمأمول أن يكون هناك دور أكثر فعالية في التصدي لهذه الفكرة وإسقاطها من الحقل الثقافي المعاصر.

(1) راجع: السابق، ٢١٥ – ٢٢٨

النموذج الثاني

ومن القضايا التي شغلت الفكر المعاصر لزمن طويل ما سمي بالفلسفة الوجودية، وهي فلسفة تطبيقية نشأت من خلال مفاهيم فرويد في الجنس والنفس ودور كايم وليفي بريل في الاجتماع والأخلاق. وقد تحولت إلى حركة اتخذت من الكهوف وأندية العري وغيرها مجالًا لإبراز أجيال من الذين اتخذوا من هذه المفاهيم منطلقًا لحياتهم وعقائد سلوكهم.

مرت الوجودية بمرحلتين: الأولى رفض المجتمعات، والأخرى التمرد والغثيان والغربة والعبث واللامعقول، وأسست لدعوة جاءت بعدها وهي "الهيبية" التي سادت في مجتمعات الغرب فترة السبعينيات من القرن الماضي.

تسعى الوجودية لتحرير الإنسان من كل القيود الاجتماعية والدينية والخلقية كي يصل إلى الغربة واليأس والانفصال التام عن كل القيم حيث لا معنى للحياة، ويصبح الفرد سيد نفسه، ويستمد سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) الذي تنسب إليه الوجودية؛ فلسفته من داخله ومن تحدياته الشخصية، كما استمد فرويد فلسفته ومفاهيمه.

يقول سارتر: "لقد صنعت ذاتي لأني لم أكن ابنًا لأحد، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه، واليوم كغد، والغد كبعد الغد، وإنه لا طعم لشيء ولا لذة لشيء ولا أمل في شيء".

وتحاول الوجودية أن ترسم طريقًا للإنسان تضعه سيد العالم الحر الطليق لا رقابة عليه من أحد ولا مسئولية عليه لأحد، يفعل ما يشاء دون حدود، وينطلق وراء رغباته وغرائزه، فالإنسان محكوم بالحرية دون أن يكون خاضعًا لأية سلطة.

الوجودية المؤمنة

وقد بدأت فكرة الوجودية بكتابات كيركجارد (١٨١٣ – ١٨٥٥) التي سميت بالوجودية المسيحية أو المؤمنة؛ حيث حمل في مؤلفاته العشرين على مجتمعه الديني وهاجم الكنيسة داعيًا الناس إلى الإيمان بأنفسهم، وكانت بذلك حربًا على المسيحية ودعوة لهدم الأديان جميعًا.

ثم تحولت الوجودية من خلال كتابات هيدجر نحو الإلحاد، ثم جاء سارتر ليُوَسّع النظرية ويعمقها من خلال مسرحياته وكتاباته الأخرى وتبعه على الطريق ذاته كثيرون في مقدمتهم ألبير كامي (١٩١٣ – ١٩٦٠).

لقد استلهم سارتر مفاهيمه الوجودية الملحدة من نيتشة، وجرى على نهج فرويد في اتخاذ الأساطير اليونانية منطلقًا لآرائه.

وجاء هذا التيار الوجودي الذي غلب على الفكر الغربي تحديًا للكنيسة في عدم استجابتها لطبائع النفوس وتعقيدات العقيدة؛ وأسرارها التي لا تعرفها إلا الكنيسة، ثم الجبرية والوصاية على الفكر البشري.

انتشار الوجودية

ساعد على شيوع الوجودية سببان أساسيان، أولهما: ما خلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية من ضحايا بعشرات الملايين، ومن دمار هائل تم بمختلف الأسلحة ومنها الأسلحة النووية، وهو ما هز النفوس البشرية، والآخر: ما يرتبط بالكتاب الوجوديين أنفسهم من مشكلات ذاتية وَصَمَت حياتهم بالمرارة والألم، وتجعل منهم في الوقت نفسه غير صالحين ليكونوا من قادة الفكر، فليسوا في الطليعة من الأبرار الذين يحفزهم إيمان بالإنسانية أو يتطلعون إلى تقديم إضافات لرفع مستوى البشرية، ولا هم من العقل أو الحكمة في المحل الأول؛ فهم

مضطربون عصبيًّا، وقد صدمتهم أحداث الحياة بكثير من الأزمات التي حملت نفوسهم بالمرارة والحقد على المجتمعات فاندفعوا إلى هدمها، وهو ما بدا أكثر استجابة لخدمة الأهداف اليهودية التلمودية من النظريات الأخرى التي خفت صوتها وقل تأثيرها على مستوى العالم.

كان سارتر - كما تصفه رفيقته سيمون دي بوفوار (١٩٠٨ - ١٩٨٦) - يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة، وهو لا يهضم أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض، ولن يكون أبدًا رب أسرة حتى ولا رجلًا متزوجًا. لم يكن سارتر يرى في الزواج شيئًا عظيمًا، كان فوضويًّا أكثر منه ثوريًّا، كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئًا محتقَرًا". وهو ما حفز كثيرًا من الشباب للسير على خطاه.

ولعل من أسباب نزعة سارتر هذه كما يقول بعض الباحثين؛ أنه ولد حيث لا أب ولا أم ولا أسرة. مات أبوه في شهره الثالث، أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبدًا بسلطان أمومتها. والأسرة لا تتعدى جدين عجوزين يؤيانه مع أمه ويشعرانهما بأنهما ضائعان. فكان ينظر إلى البشرية نظرية مليئة بعطف مشوه أساسه الاحتقار.

وكان كيركجارد ونيتشه يعانيان مثل سارتر في حياتهما الخاصة مع تفاوت، فكانت وجهتهم بصفة عامة مقاومة الاعتقاد بالله، وكانت الصيحة الغربية "إلغاء الإله!".

ومن مقولات سارتر الشهيرة:" هذا العالم وجد بلا داع ويمضي لغير غاية".

ترس في آلة

انعكست هذه المعاني على الإنتاج الفكري والأدبي لسارتر، فظهرت بوضوح في كتابيه: الوجود والعدم، والغثيان، وإذا أضفنا أزمة العصر التي ترى الإنسان ترسًا في آلة أو قطعة غيار في جهاز؛ إلى مشكلة الدين لدى مفكري الوجودية،

فسوف نرى مأساة بعيدة الأثر في حياتهم، عجزت المعطيات الدينية والفكرية في الغرب عن تقديم حل لها، فكان الفراغ الروحي، والفزع من الحروب وأخطارها، وإنكار المقدسات، والاتجاه إلى الفوضى، وهو ما حاولت اليهودية الصهيونية استغلاله لإغراء الأجيال طريقًا للحياة.

فلسفة هدم

لقد وجدت الوجودية معارضة كبيرة بسبب مخالفتها للفطرة ومنطلقات البشرية إلى التقدم والحياة. وصفها روجيه جارودي بأنها فلسفة هدم لا بناء، ومحاولة لتدمير الشخصية الإنسانية، وإسقاط النفس البشرية في مجالات اللذة والشهوات حتى تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها.

وقال جاك بيرك:" إن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الإنسان أن يتخطاها، وهي ليست روحًا Essence ".

ولعل أهم بواعث الفلسفة الوجودية أنها لبنة في مخطط اليهودية التلمودية لتحطيم الأديان والأخلاق والقيم، أما مصادرها فهي الشخصيات الموصومة غير السوية المتميزة بالقلق والحيرة، وجاءت القوى المصدرة للفكر فأذاعتها ونشرتها ودقت لها الطبول.

وقد أجمعت المراجعات التي تناولت الوجودية على حقائق مهمة، منها:

أولاً: إنكارها لمحصول البشرية من التجارب في الماضي وتدعو إلى تجاهله، فضلًا عن احتقارها لقيمته.

ثانيًا: إنكارها للواقع الإنساني والتاريخ الاجتماعي كله؛ لأنها تنطلق من مفهوم الوجود الذاتي الفردي.

ثالثًا: تقوم الأخلاق في الوجودية على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة في الموت والغموض والأنانية المفرطة.

رابعًا: تدعو كتابات الوجوديين إلى التفكك والانحلال والفوضوية، وانتقلوا إلى الواقع بالعيش في كهوف الوجوديين لممارسة لون مريض بشع من الحياة.

خامسًا: اتسم الفن والأدب والصحافة والسينما في الوجودية بطابع البدائية المغرقة في الإباحة والعري والجنس.

سادسًا: ظهور الحقد الدفين على الكنيسة حيث اتخذت الوجودية من الدين هدفًا لحملاتها.

سابعًا: عزل الوجوديون الإنسان عن الجماعة، وركزت على إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية، وأنكرت القيم الخالدة.

ثامنًا: التجرد من القيم والمبادئ التي قدمتها الأديان المنزلة للبشرية في مجالي العقيدة والأخلاق.

ويذكر الأستاذ أنور الجندي أن الأستاذ العقاد نبّه منذ زمان إلى علاقة الفلسفة اليهودية التلمودية بسلسلة الفلسفات الحديثة المتتابعة، وأن الوجودية حلقة من حلقات هذه السلسلة، ولن نفهم هذه الفلسفات مالم نفهم هذه الحقيقة وهي أن إصبعًا من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالأخلاق والقيم والقواعد الاجتماعية. فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية، واليهودي دور كايم وراء علم الاجتماع الذي يجعل نظام الأسرة مصطنعًا، واليهودي أو النصف يهودي سارتر وراء الوجودية لتعزيز الفردية والجنوح بها إلى الحيوانية التي تصيب الفرد والجماعة، واليهودي سيجموند فرويد كان من وراء علم النفس الذي يرجع

السلوك والميول البشرية إلى الغريزة الجنسية[1]..

وأذكر أنه طوال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كان الاهتمام كبيرًا بسارتر وزملائه في الوجودية، وراحت المجلات الأدبية ودور النشر والصحافة والإعلام في العالم العربي وخاصة في بيروت والقاهرة وبغداد تترجم ما يكتبه الوجوديون من كتب ومقالات وتصريحات.

زيارة إلى القاهرة

وكان الاهتمام الأبرز في أواسط الستينيات؛ هو دعوة جريدة الأهرام المعبرة عن النظام المصري ومن خلال رئيس تحريرها محمد حسنين هيكل لجان بول سارتر ورفيقته سيمون دي بوفوار التي تعيش معه دون زواج رسمي لزيارة مصر.

وقد حظيت الزيارة باهتمام كبير، ثم لقاء سارتر مع رئيس النظام، مع حفاوة غير عادية قامت بها الحكومة والجريدة والكتاب الشيوعيون خاصة، فقد كان من ضمن قبول الدعوة إطلاق سراح من تبقى منهم في المعتقلات قبل وصوله إلى القاهرة.

المفارقة أن بعض المحتفين بسارتر ورفيقته كانوا يطمحون إلى أن يؤيد سارتر العرب في القضية الفلسطينية، ولكنه بعد عودته إلى باريس كان موقفه مغايرًا لموقف العرب مؤيدًا للعدو، وإن أبدى بعض الأسف من أجل اللاجئين في المخيمات الفلسطينية، وجاءت هزيمة ١٩٦٧ ليقود سارتر أكبر مظاهرة في باريس دعمًا للكيان الصهيوني في فلسطين وتعبيرًا عن الفرح بانتصاره واحتلاله للقدس وأراضي ثلاث دول عربية، وراح يدعو إلى اكتتاب وجمع تبرعات مالية لمساندة الغزاة اليهود المعتدين!

(1) راجع: أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، ص ١٨٧ – ١٩٩، ومعلمة الإسلام، الوجودية، مادة رقم ١٤ / ١، وتوماس آرفلين، الوجودية، ترجمة: مروة محمد عبد السلام، ط١، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٤م

obeikandi.com

تراجع الوجودية

وقد ظهر التأثر جليًّا بالوجودية في كتابات بعض الأدباء والمفكرين المصريين، طوال الستينيات والسبعينيات، ولكن الوجودية بوجه عام تراجعت مع الصحوة الإسلامية وانفراجة حرية التعبير نسبيًّا في عهد السادات وما بعده، وسقوط الشيوعية وتفكيك الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية.

النموذج الثالث

على المستوى السياسي الاستراتيجي كانت هناك فكرة القومية العربية التي نشطت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وصورها الإعلام العربي آنئذ في صورة الحلم الذي يحلم العرب بتحقيقه ليقيموا دولة واحدة قوية من المحيط إلى الخليج يخشاها الأعداء وتحرر فلسطين من الصهاينة، ولكنها في الحقيقة كانت بمثابة مؤامرة لتمزيق الوحدة الإسلامية السياسية والاجتماعية والفكرية التي كانت تستظل بكلمة التوحيد. وتبين فيما بعد أنها جاءت لترسخ الإقليمية في الدول التي لها تاريخ قديم سابق على الإسلام، وتفصم عرى العروبة والإسلام، واستخدمت في مصر باسم الفرعونية وفي سورية باسم الفينيقية وفي العراق باسم الآشورية والبابلية، وفي المغرب باسم البربرية لقطع الارتباط بين أمة الإسلام وتاريخها ولغاتها القديمة.

وقد تردد تصريح خطير على ألسنة كثير من دهاقين السياسة في أوائل القرن العشرين لخصه كبير المبشرين البروتستانت الدكتور صموئيل زويمر حيث قال:

"إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات".

وكان مضمون القومية الغربية الوافدة مقترنًا على الدوام بفكرة التفوق الشعبي واحتقار الأمم الأخرى، وهو معنى عنصري لا يقره الإسلام ولا يرضاه، بالإضافة

إلى أن الفكرة القومية الوافدة تعارض مفهوم الإسلام وتعده دينًا لاهوتيًّا، وهو ليس كذلك بالطبع، بل هو منهج حياة ونظام مجتمع.

القومية الغربية الوافدة

ولا شك أن القومية الغربية الوافدة دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات الجامعة بين المسلمين، وتفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات؛ فضلًا عن عملها في عزل العرب عن التاريخ الإسلامي ببطولاته ومواقفه، وحصرها في التاريخ الإقليمي، وأيضًا عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب الإسلامي، وفرض مناهج التفكير الغربي في السياسة والاقتصاد والقانون والتربية على المسلمين[1]..

وبصفة عامة فإن النظرية الغربية في القومية تحمل ثلاثة محاذير خطيرة:

أولاً: طابع الاستعلاء الجنسي المغلق في مواجهة الأمة الإسلامية.

ثانيًا: الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الإسلامية.

ثالثًا: خلق وجود معاصر منفصل تمامًا عن الإسلام وعن العالم الإسلامي متصل بالغرب، مطمئن إلى تفسيراته وقيمه وطوابعه. (انظر السابق: ص٧)

وقد عمد الاستعمار أو النفوذ الغربي إلى طرح مفهوم للعروبة مستمد من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره، وتجاوز إلى طرح عدة نظريات لتمزيق وحدة الفكر الإسلامي، والحيلولة دون الالتقاء في كيان جامع واحد. فكانت هناك الدعوة إلى القومية الوطنية، والدعوة إلى القومية اللبنانية، والقومية السورية والقومية المصرية، وكانت هناك دعوة القومية المستمدة من مفهوم النظرية الألمانية أو النظرية الفرنسية، وإحداهما تعتمد اللغة أساسًا، وتعتمد الأخرى مفهوم المشية[2]..

(1) انظر أنور الجندي، سقوط مفهوم القومية الوافد، دار الأنصار، القاهرة، د.ت، ص ٢٢

(2) راجع السابق أيضًا، ص٦،٥

ساطع الحصري

كان من أبرز دعاة القومية العربية السياسي العراقي ساطع الحصري (١٨٨٠-١٩٦٧)، وتبنى دعوته القومية حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية والعراق، وقد لمع نجمه مع الحرب العالمية الثانية، وحظي بشهرة واسعة حتى وُصف بفيلسوف القومية العربية، وكان من أوائل دعاة الفصل بين العرب والمسلمين وفقًا لمفهوم القومية الوافد.

نشأ ساطع الحصري في ظلال المدرسة الاتحادية التركية التي نادت بالقومية الطورانية التركية، وكان مديرًا للتعليم في الدولة الاتحادية التي حكمت تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد. وقد آمن بفلسفة الاتحاديين ونقل فكرهم إلى العرب، وكان أول من حمل لواء العنصرية والعرق والدم بديلًا لمفاهيم الإسلام الذي يقوم على الإخاء الإنساني. وقد ركز على اللغة والتاريخ وعزلهما عن الفكر الإسلامي الجامع.

عرب نعم. إسلام لا

وينقل الأستاذ أنور الجندي عن مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية في جنيف، وهو رجل مؤمن صادق كما يصفه الجندي؛ أنه في خلال عمله زار ساطع الحصري سويسرا، ورأى عبد الفتاح حسن السفير المصري وقبِلَ دعوته إلى طعام الغداء، فلما قدم مع الوكيل حيّاه السفير المصري قائلًا:

"مرحبًا بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام"

وقد عجب الرجلان من ساطع الحصري الذي ردّ في حدّة وعنف:

"عرب نعم، إسلام لا. أنا لاييك.. أنا لاييك".

وكلمة لاييك تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني. (تشيع الآن في الميديا لائكي أو لائكية، وتسند غالبًا إلى الشيوعيين أو اليساريين، أو العلمانيين عمومًا).

وعلى كل حال فقد فشلت نظرية ساطع الحصري بعد ثلاثين عامًا؛ لأنها فرغت مفهوم العروبة من قيمه وتاريخه، وعناصره الخلقية والروحية وجعلته مفهومًا ماديًّا خالصًا.

والمفارقة أن ساطع الحصري اعترف بأن قومية الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة تقوم على الدين، ولكنه رفض الإسلام بوصفه- كما يزعم- دينًا لاهوتيًّا![1].

والمدهش أن طرح فكرة القومية العربية كان عامل تمهيد لطرح فكرة القومية الصهيونية، ومجالًا لظهور دعوة القومية الكردية وغيرها من قوميات، وكان أخطر ما هنالك محاولة دعاة القومية إلى إيجاد بديل أشبه بالدين يحل محل الإسلام، وصياغة عقيدة قومية كلية تضاهي في كليتها وشموليتها الفكرة الشيوعية. أي إن الهدف الحقيقي هو إحلال القومية محل الإسلام، وأن يصبح العرب بين خيارين: إما الشيوعية أو القومية المادية الوثنية.

وكانت النتيجة في نهاية الأمر أن الوحدة العربية لم تتحقق بين دعاتها وأنصارها الذين اتخذوها شعارًا لهم، ولم تحقق القومية شيئًا للعرب المؤمنين بها، ثم إنها استنفدت أغراضها، بعد أن دفع العرب ثمنًا غاليًا لفشلها، وانفتح الباب أمام الإسلام من جديد والصراع مع الغرب والصهيونية[2]..

النموذج الرابع

بيد أن الفكر الوافد من الشرق- وهو صناعة غربية في الأساس - قدم ديانة جديدة اسمها البهائية؛ تمزج أخلاطًا من الديانات السماوية والوضعية، ووجدت لها أتباعًا في عديد من الدول وخاصة دولة المنشأ وهي إيران.

(1) راجع السابق: ص ٢٣ وما بعدها

(2) انظر: السابق: ص ١٩ وما بعدها

جاءت البهائية لتمثل محاولة لخلق دين أو مذهب جديد يحتوى على رغائب فرق العالم والمولعين بالجديد وتذويب الأديان المنزلة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، في مذهب واحد يقوم على أساس ما يتفقون عليه جميعًا وهو التوراة ودين موسى.

وتقوم البهائية على التأويل شأنها شأن الدعوة الباطنية القديمة، وتستهدف أساسًا تأويل نصوص الشريعة بما يغير أحكام الصلاة والصيام وإبطال الحج، وإنكار المعجزات الإلهية، والقول بقدم العالم، ولها كتاب مرجعي يسمى "الأقدس" إلى جانب كتب أخرى.

كما تستهدف تحويل القرآن والسنة وصرفهما عن الحكمة والهداية، والزعم بأن البهائية ناسخة للشريعة الإسلامية، ومن ذلك مساواتها الرجال والنساء في الميراث ومعارضة الجهاد والدعوة إلى نزع السلاح وعدم مقاومة العدو ونشر السلام ونبذ العصبيات الوثنية وإنكار البعث والجنة والنار وتأويل ما جاء بشأنهما في القرآن الكريم؛ فتقول إن الجنة والنار في الكتب المقدسة حقائق مرموزة. كما تنكر البهائية صفات الله وإعجاز القرآن وأنه من عند الله.

وتنسب البهائية نفسها إلى بعض فرق الشيعة، ولكن علماء الشيعة هاجموها، وحكموا بكفر دعاتها وارتدادهم.

ومن أهدافها: مهاجمة اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن، والدعوة إلى ما يسمونه اللغة النوراء، على أساس أن اللغة العربية هي وعاء القرآن، لغة العبادة والثقافة للمسلمين، فضلًا عن أنها لغة العرب كافة ولغة الفكر الإسلامي كله.

فارس الإمبراطورية

نشأت البهائية في إيران ودخلها اليهود هناك بشكل جماعي، وبلغ عددهم في أربع مدن وفي خلال وقت قصير ٣٨٥ يهوديًّا، وقد روَّج لها المستشرق الماسوني جولد زيهر، والمبشرون لورد كرزون، واستلين كاربنتر، براون، فامبري، الكونت جوبينو، البروفيسور جيمس وغيرهم.

وقد أنعمت بريطانيا على عباس عبد البهاء- مؤسسها- بأعلى الألقاب (فارس الإمبراطورية البريطانية) تقديرًا له على ما أبداه من الكرم والإكرام للجنود البريطانيين في فلسطين (كان مقيمًا بحيفا في أثناء الحرب العالمية الأولى)، وقد احتفل بدفنه في فلسطين في احتفال كبير حضره هربرت صمويل المندوب السامي البريطاني اليهودي الأصل.

وكان عباس عبد البهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١) ماجنًا مفرطًا في مجونه، واتضح ذلك إبان زيارته لسويسرا وإنجلترا وفرنسا، فأساس دعوته التحرر من كل شيء، حتى العري صار مباحًا لدى البهائية. كما كان يشيد بالأفكار المجوسية ويندد بدعوة الأنبياء، ويصفهم بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق.

الكابالا

وقد انعقد المؤتمر العالمي للبهائيين في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٣، وهو أخطر الأحداث في حركة البهائيين؛ لأنه أظهر العلاقة الوثيقة بين الماسونية اليهودية التلمودية وهذه الحركة التي استمدت أغلب مفاهيمها من الكابالا اليهودية.

ويؤكد ذلك استجابة البهائيين لأهداف الصهيونية في تحريم الجهاد على أتباعهم، وقد ذكر أحد البهائيين أنه لو أجبر على حمل السلاح في مواجهة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة لأطلقه في الفضاء وأن ذلك هو شعار البهائية.

تحاول البهائية أن تصبح دينًا عالميًّا جديدًا بدعم من قوى كبرى وأموال ونفوذ وإعلام، ولكنها لم تحقق ما تريد، فالبشرية- كما يقول العلامة محمد فريد وجدي- ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام؛ فإنه استكمل شرائط الدين العام جميعًا[1]..

(1) أنور الجندي، التفسير الإسلامي للفكر البشري، ص ٢٤٠ - ٢٤٥

وللأسف الشديد، فإن اليساريين المصريين خاصة والعلمانيين عامة يظاهرون البهائيين، ويدافعون عنهم، بل يطالبون بالاعتراف بهم دينًا من الأديان، وإثبات ديانتهم في بطاقات التعريف بالشخصية، وتخصيص مقاعد لهم في المجلس النيابي، ومشاركتهم في أعيادهم المزعومة، وبناء معابد لهم.

قراءة في الوثائق

وقد تصدى للبهائية نفر من كبار الكتاب في مقدمتهم الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)- رحمها الله- فكتبت سلسلة من المقالات المهمة طوال شهر رمضان ١٤٠٥هـ في الأهرام؛ حيث كان يستضيفها سنويًّا في الصفحة الرمضانية طوال الشهر الكريم، ثم أصدرت بعدها مباشرة عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، كتابها الضخم "قراءة في وثائق البهائية"، ويقع في ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير، صدرته بالآية الكريمة "هُذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" (إبراهيم: ٥٢).

وختمته بوصيتها إلى الأمة حيث لم تنظر إلى البهائية بوصفها نحلة لطائفة من غير ديننا، ولكنها تنظر إليها من ناحية الكيد للإسلام وعداوة أمته.

والكتاب يعد من أوفى المراجع الموثقة في بيان بواعث النحلة ودوافعها، ومسيرتها وأهدافها، ورجالها وصناعها، وواجب المسلمين في التصدي لها.

النموذج الخامس

ولعل أخطر ما جاء به الفكر الوافد وكشفت عنه الدراسات الجادة والبحوث الرصينة ما قامت به اليهودية التلمودية في مجال غزو الفكر الإسلامي انطلاقًا من التاريخ القديم، فقد زيفت هذا التاريخ لتنقض على التاريخ الإسلامي وتؤسس للفلسفة الماسونية المسمومة مؤامرة الصهيونية على أرض فلسطين والعالم العربي الإسلامي.

فقد قام اليهود بتزييف التاريخ القديم والأديان والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) واللغات، وحاولوا التبديل والتغيير، ويلتمسون ما يستطيعون التماسه من القرائن والمعارضات والتناقضات بفكر مسبق يستهدف إثبات أن لهم حقًّا في فلسطين، وأن لهم تاريخًا متصلًا وأثرًا في الفكر الإنساني ودورًا في الحضارة.

بدأت هذه المحاولات بنشر التوراة متصلة بالإنجيل على ما بينهما من تناقض واختلاف، وذلك لحمل المسيحية على تبني دعواهم الباطلة في الوعد الإلهي لإبراهيم لقصره على إسحق وأبناء إسرائيل (يعقوب) وحجب إسماعيل أبي العرب والمسلمين وابن إبراهيم الأكبر. ثم محاولة إيجاد تاريخ لهم في فلسطين بينما الحقائق التاريخية الدامغة تؤكد أن اليهود لم يكن لهم وجود قائم أو مستمر فالعرب أقدم منهم في استيطان فلسطين، وأن الإسلام قد ألقي إليه ميراث النبوة كله، وأن الحق تبارك وتعالى أورث محمدًا- ﷺ- الأرض المقدسة وجعلها لأمته إلى يوم الدين، وأن عمر بن الخطاب أجلى فلول اليهود من فدك وتيماء ووادي القرى.

اليهود نوعان

وقد أثبتت الحقائق التاريخية أن اليهودية ليست دمًا، وأن يهود اليوم ليسوا أبناء اليهود الذين سكنوا فلسطين مدة قصيرة من الزمان، واليهود الآن نوعان: الشرقيون (السفارديم)، والغربيون (الأشكناز)، والفريقان يتناقضان تناقضًا صارخًا في المزاج والتقاليد. ويلاحظ أن النوع الثاني (الأشكناز) متهودون تهوّدوا في التاريخ الوسيط، ويتكلمون لغة اليديش، وهي إحدى اللهجات الألمانية المحشوة بكلمات عبرية محرفة على الأغلب.

جنس الخزر

إن اليهود الذين يقومون بالحركة الصهيونية ليسوا من بني إسرائيل، وإنما هم من جنس خزري آري (أي ليس ساميًّا) ودخلوا في صراع مع المسيحية الأرثوذكسية في روسيا وبولندا، فقُتلوا وشُتتوا بعد اغتيال القيصر! ويلاحظ أن اليهود يحولون

بين ورود مادة الخزر في معظم دوائر المعارف العالمية حتى لا ينكشف أن هناك شعبًا تهوّد قبل المسيح بقرنين أو ثلاثة في الحوض الشمالي لنهر الراين بأوروبة وتفرع هذا الشعب الذي اعتنق اليهودية إلى جماعات متعددة، استوطنت بولندا ووسط أوروبا وروسيا الغربية. ومعنى هذا أن تسعة أعشار اليهود في العالم من سلالة غير سلالة يعقوب، وأن من يتصدرون الدعوة الصهيونية اليوم هم من سلالة جرمانية سلافية أوروبية محضة تكاثرت منذ القرن الثالث الميلادي.

التوراة المتداولة كتاب بشري

إن التوراة التي يحاول اليهود أن يجعلوها مصدرًا من مصادر التاريخ هي كتاب بشري كتبه أحبار اليهود بأيديهم في منفاهم البابلي، وليس لها أية قيمة علمية أو تاريخية، وليس فيها أي نفحة من نفحات الروح أو الإيمان أو الخير، فهي تصور اتجاهًا عنيفًا قاسيًا مستعليًا على البشرية يهدف إلى السيطرة ويدمر ويقتل ويرسم طريقًا عنصريًّا يحجب حقائق التاريخ الأصيل وينكر حقائق التاريخ. وأبرز الأدلة على بطلانها أنها لا تعترف بإسماعيل أبي العرب والمسلمين، ثم إنها تجعل العلاقة بين الأنبياء وبين الله سبحانه تقوم على الصراع وعدم الثقة.

وقد وجه الباحثون الغربيون وخاصة بعد إخضاعها للنقد في القرن السادس عشر عديدًا من الانتقادات التي تجعلها كتابًا بشريًّا لم يكن وحيًا ولا من عمل موسى. على سبيل المثال رأوا تشابهًا بينها وبين الأساطير اليونانية والسومرية والبابلية والسورية، وأن عقيدة التوحيد التي تقدمها التوراة قائمة على ركائز وثنية موغلة في القدم.

لقد صمتت التوراة عن حقائق أوردها القرآن الكريم مثل البعث، ولم تفصّل خلق آدم، وتصوّر خطيئته تصويرًا بشريًّا صرفًا، وفكرة الإله في التوراة لا تختلف عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يمشون على الأرض.

والأخطر أن الصهيونية تتخذ من التوراة وسيلة لخداع الغربيين زعماء وشعوبًا في محاولة اكتسابهم إلى جانبها في معركتها مع العرب باسم الدين، وقد زينوا لهم فأطلقوا على التوراة (العهد القديم) وعلى الإنجيل (العهد الجديد)، وأوهموا مسيحيي الغرب أن إيمانهم يظل منقوصًا ما لم يؤمنوا بكل ما جاء في العهد القديم، وقد أدرجوا التوراة في المناهج الدراسية في دول الغرب على أنها مادة تاريخية.

موقف الإسلام

ويمكن تلخيص موقف الإسلام من التاريخ القديم الذي يحاول اليهود صياغته من جديد على نحو يخدم أهدافهم العدوانية ودفاعهم عن دعوتهم الصهيونية؛ في النقاط التالية:

أولاً: يقرر الإسلام أن اليهودية خرجت عن أصولها وغرقت في الوثنيات القديمة، وشكلت فكرًا يستهدف غايتهم الباطلة في السيطرة المادية ونشر الإباحية والفساد، وصارت مفاهيمها قائمة على المادية الطاغية والربا والتحلل والدهرية وإنكار الآخرة والحساب وثبات الأخلاق.

ثانيًا: كشف الإسلام عنصرية اليهود وادعاءهم التميز عن خلق الله.

ثالثًا: كما كشف فساد مفهومهم للألوهية؛ حيث غيروا المفهوم الرباني وادَّعوا إلهًا خاصًّا لهم سموه الإله يهوه، وهو كما وصفته التوراة متوحش شرير شغوف بالفساد وإراقة الدماء (يهوه رب الجنود). ويعد إنكار البعث من أخطر مفاهيمهم وأن الدنيا هي كل شيء، والسعي لها هو وحده العمل.

رابعًا: وضح الإسلام خطأ مفهومهم عن "الغاية تبرر الوسيلة" وجواز اتخاذ الوسائل الشريرة في سبيل تحقيق الغايات العليا والنجاح مثل الكذب والغدر والوقيعة، زعمهم تطور الأخلاق، بينما يؤمن الإسلام بثبات الأخلاق والتماس الخير والبر والصدق سبيلًا إلى تحقيق الغايات العليا.

خامسًا: أبان الإسلام عن تزييف اليهود للصلة بين التوراة والأديان التي جاءت بعدها، وخاصة ما يتصل ببعثة النبي محمد- ﷺ- الذي جاء وصفه في التوراة، وقد حرّف اليهود هذا النص كي يجعلوا اليهودية دينًا نهائيًّا، وأنكر عليهم الإسلام دعوى الجبر التي يدينون بها ودعوى التشبيه وما يعتقدونه عن الرجعة، فكل هذه المفاهيم ليست من دين الله الحق.

سادسًا: قرر القرآن الكريم أن التوراة المتداولة قد أصابها التحريف والتعديل والنسيان والإخفاء، فهي ليست التوراة الإلهية ذات التعاليم المقدسة والشريعة الربانية. قال تعالى: " فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً - يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ - وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ - فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ.."(المائدة: ١٣).

سابعًا: حفلت التوراة بأكاذيب نفاها القرآن وكذّبها، واتهامات للأنبياء: لوط وسليمان وداود، كما تضمنت الشريعة التفرقة العنصرية، بوصف اليهود أنهم الشعب المختار، والشعوب الأخرى أقل درجة، ومباح لليهود قتل غير الإسرائيليين وغزو الشعوب الأجنبية "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران: ٧٥)[1]..

وبصفة عامة؛ لقد ارتبط الفكر الوافد من الغرب بمخططات عدوانية مسلحة صريحة، تأتي من جانب الغرب واليهود، أو تحدث بالوكالة يقوم بها عرب ومسلمون أو غيرهم من أطياف المقيمين في العالم العربي.

وما كان هذا الفكر الوافد إلا تمهيدًا لتحريك العناصر المسلحة المقاتلة التي استهدفت البشر والحجر، واستنزفت كثيرًا من الموارد والثروات، وصنعت كثيرًا

(1) راجع: أنور الجندي، المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، ط٢، دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، ص ١٨٣ - ١٩١

من الهزائم المذلة التي تسببت في تخلف الأمة وضعفها وهوانها. وما حروب أفغانستان والعراق وسورية وجنوب السودان واليمن وليبيا... وغيرها إلا تجسيد لهذا البؤس الذي تعيشه الأمة نتيجة لبعدها عن منهج الإسلام، واستجابتها- بالأحرى استجابة النخب المهيمنة- للفكر الوافد ومخططاته بصورة وأخرى.

اعتراف الجنرال

ويبدو أن مرور الأيام يكشف عن كثير من مخططات الغرب وفكره الوافد، وعلى سبيل المثال بعد مرور أكثر من عشر سنوات على غزو الولايات المتحدة للعراق وتدميره يعترف الجنرال الأميركي فلين بأن الرئيس العراقي الراحل صدام حسين كان قاسيًا، لكنه اعترف أيضًا أن القضاء عليه لم يكن صائبًا، وقال "لو لم تقم الولايات المتحدة بغزو العراق لما ظهرت داعش (تنظيم الدولة الاسلامية)".

ولكن الجنرال لم يتحدث عن أن هذا الغزو كان من أجل الكيان الصهيوني بالقضاء على جيش عربي كان يمكن أن يكون له دور كبير في إيقاف تمدد الاحتلال اليهودي وردعه. وقد آثرت الولايات المتحدة ومن معها من دول الغرب أن تقضي على الجيش العراقي وتبث الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية في أرجائه، فيشتعل الصراع بين الشيعة والسنة، وبين العرب والكرد، وبين المسلمين وغير المسلمين.

لقد كان من وراء الغزو والتخطيط له فريق من اليهود والصليبيين المتعصبين؛ بزعامة المؤرخ البريطاني برنارد لويس، وريتشارد بيرل، وبول وولفوفيتش وبرنارد هنري ليفي، فقد وقفوا خلف الحملات الإعلامية والسياسية والفكرية لتسويغ العدوان[1].

إن الفكر الغربي الوافد مع مخططاته نجح إلى حد كبير في إبعاد النخب

(1) تصريح الجنرال فلين ورد في أخبار وكالات الأنباء ٣٠/ ١١/ ٢٠١٥

الثقافية التي تقود العرب والمسلمين عن معطيات الإسلام وغاياته، فسقط أغلب المسلمين فريسة للوحشية الغربية الصهيونية التي استطاعت أن تحتل فلسطين كلها بما فيها القدس العتيقة، وأراضي دول عربية أخرى، بالإضافة إلى أفغانستان والعراق وسورية، مع تمزيق السودان وإشعال الحروب في أماكن أخرى.

ومع تجدد الأحداث اليومية التي تمر بالعرب والمسلمين، ندرك كم كان أنور الجندي يؤذن في الناس ويدعوهم إلى الوعي بما يجري من حولهم وفي داخلهم وكم كان مجاهدًا عظيمًا في مناخ كله حصار واشتباه وعدوانية ضد الفكر الإسلامي، وفي حدود إمكاناته المحدودة، ضحى بمعاشه وموارده القليلة، ووقته وجهده؛ ليترك لنا تراثًا ضخمًا من الكلمات والصفحات التي ترشد وتهدي وتضيء وتحلل وتتابع وتفرز وتصنف وتنقب وتفتش، وتقول لنا: احذروا! وخذوا بالأسباب كي لا تؤخذوا على غرّة.

***

obeikandl.com